
قافلة الزيت
ربيع الثاني ١٣٩٤هـ - ابريل/مايو ١٩٧٤م



بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الرابع المجلد الثاني والعشرون

محتويات العدد

بحوث أدبية

بحوث علمية

إستطلاعات مصورة

التعليق على صورة الغلاف

منظر عام لمعمل فرز الغاز من الزيت التابع لحقل السفانية المغمور في مياه الخليج العربي بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية .

راجع مقال : « البحث عن الزيت في المناطق المغمورة »

تصوير : سعيد الغامدي

تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الامريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة - توزع مجاناً

العنوان : صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران - المملكة العربية السعودية

المدير العام : فيصل محمد البسام المدير المسؤول : عبد الله صالح جمعة

رئيس التحرير : منصور مدني المحرر المساعد : عوني أبو كشك













سيادة العرب البحرية في البحر المتوسط

مالطة العربية



بقلم: الدكتور عبد الرحمن زكي

تقع جزيرة « مالطة » في البحر المتوسط بين جزيرة صقلية وجمهورية تونس ، وهي اليوم دولة ذات نظام ديموقراطي في الكومنولث البريطاني ، ومن بلدان منظمة الأمم المتحدة . تقدر مساحتها بقرابة ٣١٦ كيلومترا مربعاً مع جزيرتي « جوزو » (قودس) و « كومينو » (الكمون) ، وجزيرتي « كومينيتو » و « فلفولة » الصغيرتين (١) . ويبلغ عدد سكانها جميعاً قرابة نصف مليون . هذا الأرخبيل المؤلف من تلك الجزر يبعد حوالي ٣١٦ كيلومترا عن تونس ، و ٣٦٠ كيلومترا عن طرابلس . وتمتزج الدماء النورمانية والاسبانية والايطالية والعربية في شعب مالطة ويتبع المالطيون الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

و « فاليتا » هي عاصمة مالطة ، ومن اكبر مدن مالطة « سليمة » . واللغتان السائدتان في مالطة هما المالطية والانكليزية . وكان يتولى حكم الدولة الى عهد قريب « سير موريس دورمان » البريطاني ثم حل مكانه « سير انتوني مامو » ، وهو مالطي ، ويرأس « دوم منتوف » الحكومة وهو زعيم حزب العمال . وقد قام « دوم منتوف » بزيارة رسمية للمملكة العربية السعودية في مطلع العام الحالي ١٣٩٤ هـ .

مالطة والتاريخ الوسيط

حاول العرب غزو مالطة مراراً فلم يفلحوا حتى تم لهم الفوز اخيراً على البيزنطيين عام ٨٦٩/٨٧٠ ميلادية . وظلت في ايديهم حتى سنة ١٠٩٠ ميلادية حينما انتزعها «كونت روجر» النورماني بعد استيلائه على جزيرة صقلية من المسلمين . . ويمكن القول بأن مدة بقاء العرب في مالطة كانت قرابة ٢٢٠ سنة .

لقد ادرك العرب اهمية موقع مالطة ، فهو يتوسط ويتحكم في المضائق التي تتشعب منه بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولأن موانئها آمنة ومتسعة .

هذا وكان يسيطر على الملاحة في البحر المتوسط في اواخر القرن الثامن واوائل القرن التاسع الميلاديين دولتان عظيمتان ، هما بيزنطية في حوضه الشرقي ، واسبانيا المسلمة في غربه ، ولم تكن سفن الدولة الأولى تعترض ملاحة سفن الاخرى في سيرها من الغرب الى الشرق او على العكس . ويؤيد ذلك اولاً : ما كانت عليه علاقة اليهود « الرضّانية » بأعمال التجارة (٢) في « مارسيليا » عن طريق اسبانيا مع تجار مصر والشرق الاسلامي . وثانياً : رحيل جماعة كبيرة من المسلمين الذين ابعدتهم حكومة قرطبة في الأندلس ، ووصولهم الى الاسكندرية دون تدخل السفن البيزنطية او اعتراض سفنها (٣) .

ومع استمرار حسن العلاقة بين الدولتين كانت تقع حوادث اعتداء بين السفن في البحر المتوسط ، ولذلك كانت تتبع الطرق القريبة من السواحل او اجتناب البحر والسفر في قلب الصحراء ، وكان من العسير او المستحيل ان تغلق بيزنطية عن طريق قواعدها الجزرية في كريت وصقلية وقبرص ومالطة وقوصرة « بانتيلاريا » طرق التجارة البحرية تماماً امام سفن المسلمين بين الشرق والغرب .

وعندما انتصف القرن التاسع بدأت تتحول الكفة تدريجياً الى مصلحة المسلمين ، وذلك بعد ان مرت فترة هدوء نسبياً في شرق البحر المتوسط . فقد بدأت دولة بني الأغلب (الأغالبة) تسيطر على الجزء الأوسط من البحر ، ونهض الأغالبة عام ٨٥٨ ميلادية بهجوم بري وبحري على « سيفالو » على الشاطىء الشمالي ، واستولوا على « بلرمو » في صقلية ، ثم هزموا اسطولا بيزنطياً مؤلفا من اربعين سفينة عند ساحل « ايوليا » (٤) .

اذهلت تلك الخسائر حكومة بيزنطة ودفعتها الى بذل جهد بحري آخر لمحو آثار تلك الهزيمة ، فدفعت بأسطول عظيم مؤلف من ٣٠٠ سفينة من موانئها الشرقية الى «سيراقوزه» ، واجتازت سفنه مضيق « مسينا » للاستيلاء على « سيفالو » ، وهناك عند الساحل الشمالي لصقلية لاقت اسطول المسلمين ، ونشبت معركة بحرية بين الطرفين كانت مروعة ، انتصر فيها الاسطول العربي وفقد البيزنطيون قرابة مائة سفينة ، وكانت تلك أفدح هزيمة مني بها البيزنطيون منذ سنة ٨٤٠ ميلادية (٥) .

اهتزت في أثر تلك اللطمة سيادة بيزنطية على صقلية ، وسقطت « كاسترو وجيوفاني » في قبضة العرب سنة ٨٥٩ ميلادية (٦) ، ثم سرعان ما اصبح ثلثا ارض صقلية في ايدي العرب لا ينازعهم احد . وبعد ثماني سنوات عزم المسلمون على اتمام الفتح الصقلي ، وارسل حاكم « بلرمو » جيشاً وبعض السفن ضد « سيراقوزة » ، فهب اسطول بيزنطي من الشرق ، وتمكن من اقصاء المسلمين عنها سنة ٨٦٨ ميلادية (٧) .

وحينما أصبح للعرب السيادة على معظم انحاء صقلية وأمنوا نسبيا خطوط مواصلاتهم البحرية في البحر المتوسط او على الأقل بين صقلية وأفريقية ، عزموا على الاستيلاء على مالطة وقودس ، وغزا الأغالبة مالطة ، وضمنوا الاشراف التام على اجزاء المضيق البحري بين شاطيء افريقية « تونس » « وسيراقوزه » ، وكان ذلك قرابة سنة ٢٥٦ هـ(٨٧٠م)(٨).

عام فتح مالطة

تضاربت أقوال المؤرخين حول تاريخ فتح مالطة ، فقد ذكر واحد منهم واسمه « ابيلا Abela» ان غزو العرب لمالطة كان عام ٨٢٨م ، وجاء في موسوعة « كامبردج » التاريخية انه كان في عام ٨٧٠م ، وفي موسوعة « اماري » الصقلية العربية انه تم اثناء حكم « باسيل » الأول ، امبراطور بيزنطة . والمعروف ان هذا الامبراطور جلس على العرش عام ٨٦٦ م ، ومات عام ٨٨٦ م . ويغلب الظن ان سبب الاختلاف حول تاريخ الفتح الى تلك المحاولات العربية الكثيرة لغزو الجزيرة . . تلك المحاولات المتعاقبة التي انتهت احداها بالفتح الحقيقي المستقر . ومن بين الاراء المختلفة عن الفتح العربي لمالطة ما يعزى الى « فنسنت بونافيتا » القاضي المالطي ، وسنذكر هذا الرأي كاملاً :

- في ١٠ يوليه سنة ٨٣٣ م حاول العرب في غزوتهم الأولى لمالطة النزول برجالهم في مرفأ « بولس » ، وكان اسطولهم الذي غادر صقلية يقدر بخمسين سفينة تحمل كل منها قرابة مائة مقاتل ، فقاومهم اهالي الجزيرة وردوهم في اتجاه جزيرة «قودس» ، وبقوا في تلك الجزيرة ٢٥ يوماً حتى تمكن الأهالي من التغلب عليهم وأجبروهم على الانسحاب الى صقلية .
- وفي عام ٨٣٦م، قام العرب بمحاولة ثانية ، فأعدوا اسطولاً يتألف من ستين سفينة تحمل قرابة ستة آلاف من المجاهدين ، وهاجموا « قودس » اولاً ، وتغلبوا على رجال حاميتها اليونانية وافنوهم ، ولم يمسوا اهلها بسوء ، ومنح هؤلاء الطعام للغزاة ، وقدموا مائة قطعة من الذهب لقائد الحملة ، ثم لقوا مقاومة شديدة من قوات الامبراطور « ثيوفيل » .
- وفي ١٢ أغسطس ٨٧٠م، استولى العرب بقيادة احمد بن عمر بن عبيد الله الأغلبي على مالطة وكانت تحميها حامية يونانية قوامها ثلاثة آلاف من الجنود افنوا عن آخرهم ومعهم عدد يذكر من اهالي الجزيرة .

يتضح من بحث هذا القاضي المؤرخ ان العرب وجهوا ثلاث حملات ضد مالطة : الحملة الأولى عام ٨٣٣ م في عهد الامبراطور « ثيوفيل » ، والحملة الثانية عام ٨٣٦ م ، والحملة الثالثة عام ٨٧٠ م في عهد الامبراطور «باسيل الأول» ، وهي الحملة الختامية التي كان من نتائجها استقرار حكم العرب مدة طويلة في مالطة.

ولا بد ان كانت الجزيرتان «مالطة» و«قودس» (جوزو) آهلتين بالسكان عندما حاول العرب غزوهما في عام ٨٣٣ م . لأنه من الواضح انه لا يستطيع مقاومة اسطول مؤلف من خمسة آلاف مقاتل وانتزاع النصر منه الا عدد اكبر نسبياً ، وهذا على عكس ما ورد في بعض المراجع التي ذكرت ان مالطة وقودس كانتا لا تأويان الا بضع مئات من الأهالي .

وفي الحملة الثانية استولى العرب على قودس دون مقاومة تذكر ، وأفنوا جميع اليونانيين الذين لاقوهم ولم يلحقوا ضرراً بالأهالي ، وقدم هؤلاء للغزاة المأكل والمشرب ، والمال أيضاً ، واخيراً وصل من « سيراقوزة » (بصقلية) جماعات من المحاربين اليونانيين تحت قيادة « ماركانو » قائد الامبراطور « ثيوفيل » وتغلب هؤلاء على العرب وأخرجوهم .

اما في الحملة الثالثة فقد استولى العرب اولاً على « قودس » ثم على « مالطة » ، ونزلوا في مرفأ « بولس » ولم تأت المحاولات لصدهم بأية نتيجة ، فسرعانما وصل الفاتحون الى قلب مالطة ، وعسكر رجالهم في بقعة من مدينة « نوتابيلي » — في وسط الجزيرة في ارفع موضع منها — ولما حاول الفاتحون الاستيلاء على تلك المدينة جميعها ردهم الأهالي مراراً حتى اضطروا الى التسليم ، ووقع اسقف الجزيرة اسيراً ، ولم يعين احد في مكانه اثناء الحكم العربي .

ولم يصل الينا الكثير عن نظام الحكم الذي اقامه العرب في « مالطة » او « قودس » وان كان من المؤكد انهما كانتا تحت حكم امير مسلم نائب عن امير صقلية ، ومن المعروف انه سمح للنصارى الذين بقوا في الجزيرتين باقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة ، ولم تفرض الضرائب الفادحة على الأهالي . وكانت العربية الفصحى رائجة الى جانب اللهجة المحلية حتى لقد نبغ بمالطة شعراء ، نخص بالذكر منهم ابا القاسم عبد الرحمن بن رمضان من القرن الخامس الهجري ، وابا محمد عبدالله السمنطي معاصراً لزميله(٩) . وانتشر الفن المعماري العربي بمالطة ونرى بقايا منه في القصر الكبير الذي هو قلعة المدينة وقصبتها والمسمى بقصر « سانتجلو » ، فضلاً عن ان التنقيب عن الآثار الذي اجري كشف عن مقبرة عربية فيها شواهد نقش عليها عبارات بالخط الكوفي المزهر . وعثر في مالطة ايضاً على مجموعات من النقود الأغلبية والفاطمية والصنهاجية ، مما يدل على استمرار المعاملات والعلاقات التجارية طوال العصر العربي بالجزيرة ، وهي محفوظة في متحف « مالطة » الوطني (١٠) .

ولا يمكن فصل تاريخ الارخبيل المالطي عن الأحداث التي مرت بجزر البحر المتوسط والدول العربية التي نهضت على ساحله الجنوبي . ويمكن ايجاز احوال تلك الجزر التي في شرقي البحر المتوسط فيما يأتي :

- **قبرص :** تنازعها الأمويون والبيزنطيون حتى عام ٧٥٠ م ، ثم نازعهم العباسيون بعد عام ٧٥٠ م ، وتنازعها البيزنطيون حتى عام ٨٧٤ م ، ثم استردها البيزنطيون وظلت بأيديهم فيما بين عامي ٨٧٤ — ٨٧٦ م ، وما لبث ان اغار عليها المسلمون مراراً .

---

(١) مساحة مالطة وحدها ٢٣٧ كيلومترا مربعاً وتبعد مالطة عن جزيرة قودس ستين كيلومترا. (٢) يمثل هؤلاء اليهود مجموعة من المحايدين الدوليين كانوا يقومون بالتجارة بين الكارولنجيين ، والأمويين والأندلسيين وسكان شمال أفريقيا ، والشرق الأوسط ، كذلك البيزنطيون . ولم تكن بيزنطية تسمح بالمتاجرة في الرقيق . أنظر كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة. نشر دي خويه ص ١١٤ — ١١٦ ، وقد تكتب الردانية عن الفارسية راه—دان. (٣) وصلت هذه الجماعة الأندلسية الى الاسكندرية قرابة عام ٨١٥م يقودهم أبو حفص عمر بن عيسى ، وكان عددهم يقرب من ١٥٠٠٠ رجل عدا النساء والأطفال . أنظر الكندي : القضاة والولاة ، ص ١٥٧ . (٤) ابن الأثير جـ ٧ ص — ٤١ — ٤٢ . (٥) ابن الأثير جـ ٧ ص ٤٢ ، وتاريخ صقلية جـ ٢ ص ١٨٢ . (٦) ابن الأثير جـ ٧ ص ٩٧ . (٧) تاريخ ابن خلدون ص ١٢٥ . (٨) ابن الأثير جـ ١ ص ٢٤ . (٩) عثمان الكعاك : الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط ، ص ١٦ . (١٠) Joseph Gath Rutter : Illustrated guide to Malta and gozo : Malta.

منهم الطولونيون حتى عام ٩٠٥ م ، ثم العباسيون بين عامي ٩٠٥ و ٩٦٤ م .

- **رودس :** أغار عليها العرب عام ٦٥٤م واحتلوها من عام ٦٧٢ م حتى ٦٧٩ م ، ثم استردها الروم ، وتمكن الأمويون من احتلالها حول سنة ٧١٨ م لفترة قصيرة .
- **كريت** (اقريطش) : حكمها الأمويون في الشام زمناً قصيراً عام ٦٧٤ م ، وغزاها في عام ٨٢٥م عمر بن عيسى على رأس مهاجري الأندلس بعد ما ثار ضدهم اهل الاسكندرية وطردوهم منها ، وقد ظلت تحت حكم امراء المسلمين من اهلها الى عام ٩٦١ م حينما استردها اباطرة البيزنطيين .
- **مالطة :** استمرت تحت حكم الأغالبة حتى سنة ٩٠٩م، ثم تحت سيادة الفاطميين حتى عام ١٠٩٠ م حينما استولى عليها النورمان ، وكذلك جزيرة قوصرة (بانتلاريا) .
- **قور شقة :** اغار عليها المسلمون حوالي عام ٧٧٤ م ولكنها استمرت في حكم الافرنج وقد نازعهم اياها قرصان الأغالبة بعد عام ٨٠٩ م ، ودام التنافس عليها بين الجانبين حتى عام ٩٠٩ م ، ثم الفاطميون من عام ٩٠٩ — ٩٣٠ م .
- **سردينية :** أغار عليها العرب في اخريات القرن الثامن وهي تحت حكم الافرنج ، واستمر بنو الأغلب يهاجمونها بعد عام ٨٠٩ م ، واستولوا على بعض الأجزاء الساحلية حتى عام ٩٠٩م ، وحاول الفاطميون بعد ذلك ان يضموها الى ملكهم .
- **جزائر البليار :** اغار عليها عبدالله بن موسى حوالي عام ٧٠٨م ولكنها ظلت تابعة للافرنج الى عام ٧٩٨م عندما غزا أمويو الأندلس يابسة (افيزة) في العام المذكور ، ثم انتقلت الى حكمهم طوال القرن التاسع الميلادي . اما جزائر « ميورقـة » و «منورقة» فبالرغم من مهاجمة المسلمين لها بقيت فرنجية . واثناء القرن العاشر ، فتح عصام الخواني الجزيرتين ، وكان ذلك في عام ٩٠٣ م ، وخضعت الجزر الثلاث لأمويي الأندلس حتى عام ١٠٢٢ م حينما انتقل امرها الى ايدي اهلها من المسلمين .

ويمكن القول بأن البحر المتوسط بقي بحيرة عربية مدة لا تقل عن ثلاثمائة سنة ، ومع ذلك استمر العرب محلالها في نزاع متواصل لا يكاد ينقطع ضد البيزنطيين والفرنج في تلك الجزر . وقد وجه البيزنطيون هجوماً ضد « مالطة » باء بالفشل ، فاضطرت بيزنطة الى استدعاء قائدها ، وكان ذلك عام ١٠٤٠ م .

ثم جاء النورمانديون وهم في اوج نشاطهم ، فحالفهم النصر تدريجاً ، واخذوا في استرداد مدن صقلية ، الواحدة بعد الأخرى حتى تم لروجر النورماني عام ١٠٩٠ م فتح صقلية جميعها بعد جهود استمرت سنين ، واخذوا في دعم مراكزهم في تلك الجزيرة استعداداً للانتصارات المقبلة .

اتضح للنورمان اهمية موقع مالطة ، فبوساطتها يمكنهم قطع المواصلات بين الدولتين العربيتين في الشرق ، الفاطميين في مصر والشام، ودولة المرابطين في الأندلس وشمالي افريقية . ففي عام ١٠٩٠ م اتجه النورمان الى مالطة ، وكانت مراكزهم الحصينة قد اصيبت بالضعف نتيجة للحملات العنيفة التي وجهت ضد مدينة المهدية منذ عام ١٠٨٧ م . وقد سقطت مالطة في قبضتهم بعد سيادة العرب عليها قرابة ٢٢٠ سنة ، شيدوا خلالها قلعة « انجلو » عام ٩٧٣ م . وحينما سقطت مالطة كسبت اوربا الغربية الاشراف على المضايق الرئيسية بين افريقية وصقلية فضلاً عن جزيرة صقلية نفسها .

ألحق النورمان مالطة بصقلية وظلت بأيديهم حتى عام ١٥٣٠ م حينما استولى عليها فرسان « يوحنا » ثم تسلمها منهم نابليون عام ١٧٩٨ م خلال حملته على مصر .

لقد اجلي المسلمون عن مالطة في النصف الأول من القرن الثالث عشر على عهد الحفصيين ، اجلاهم ملك صقلية « فردريك » الثاني سنة ١٢٢٤ م ، وذكر ابن خلدون أنها سنة ١٢٤٥ م . وانتقل المسلمون المالطيون الى تونس لا سيما الى سوسة وقليبة وغار الملح .

وفي عام ١١٢٢ م دبر المسلمون امراً للاستيلاء على الأرخبيل بيد ان الامر اكتشف وقبض على مدبرية وحكم عليهم بالقتل بعد ان استدعيت على عجل قوات من « مسينا » بصقلية .

ما أفادته مالطة من العروبة

ظل السكان المسلمون في اثناء السيادة العربية على مالطة اوفر عدداً من السكان المسيحيين ، وكانت غالبيتهم مـن تونس او جزيرة « جربة » . وهناك احصائية لسكان ارخبيل مالطة في عام ١٢٤٠ م اي بعد قرابة ١٥٠ سنة من فتح النورمان توضح انه كان بالارخبيل ٦٧١ اسرة مسلمة و ٢٥٠ أسرة مسيحية و ٣٣ اسرة يهودية ، وهكذا نرى انه حتى بعد الاسترداد النورماني ، ظل المسلمون يعيشون مع المسيحيين جنبا الى جنب في أمن وطمأنينة على قدر ما سمح به التعايش حينذاك .

ومن ناحية الأثر العربي في مالطة ، فلم يبق كثير من مخلفات العرب . ونشاهد الى اليوم في الجزيرة بعض اسس الأسوار القديمة لقلعة « انجلو » التي شيدها العرب دفاعاً عن المرفأ الكبير وبعض اقسام المدينة القديمة « شيتا فيكيا » وعشرات من النقوش الكتابية على شواهد المقابر الاسلامية في رباط وبعض قطع العملة العربية كما ذكرنا .

اما اهم ما خلفه العرب في مالطة وطبع اهلها « بالعربية » فيتضح في اللغة والعادات والتقاليد واسماء كثيرة من الأماكن والبقاع . وتكفينا نظرة عابرة الى خريطة جزر الأرخبيل المالطية لنتعرف الى عربية اسماء الأماكن ، والأمثلة كثيرة منها غار (Ghar) ، ووادي (Uyed) ، وعين (Ayn) ، وجبل (Gebel)، وغدير (Ghadir) . ان لغة مالطة عربية لا شبهة فيها ، وقد ثبتت العربية في مالطة بالرغم من انقراضها من صقلية وسردينية واسبانيا ومعظم البلدان التي احتلها العرب من اوربا ، لأن اصل تلك الجزر والبلدان لاتيني ، فلما تقلص ظل العرب عنها رجعت اليها لغتها الأصلية، وانقرضت العربية منها . فأما مالطة ، فلغتها الأصلية لم تكن لاتينية ، بل كانت الفينيقية وهي اخت العربية ، فلما جاءتهم العربية بعد ان فتح العرب مالطة ، كانت كأنها نزلت في وطنها، فثبتت فيها حتى بعد خروج العرب منها .

ومن اشهر علماء مالطة العرب : عثمان ابن عبدالرحمن المالطي المعروف بابن السوسي ، وهو من رجال القرن الخامس الهجري . ولد في مالطة وبها تهذب وقرأ على ابيه الأدب ثم سكن « بلرم » (بصقلية) واتخذها داراً ، ونيف على السبعين وله شعر صحيح المعنى . ووصلنا اسم ابو بكر محمد بن علي بن الجبار الكموني (نسبة الى جزيرة كمون) وله شعر لطيف. وكذلك عبدالله بن السمنطي (ويحتمل السمطي).

لقد ألف أحمد فارس الشدياق في القرن التاسع عشر كتابه الفريد « الواسطة في معرفة احوال مالطة » تناول فيه اشياء كثيرة ولطيفة عن الجزيرة ، بيد انه لم يمدنا فيه بشيء من التراث العربي المجيد في مالطة ■

عبد الرحمن زكي — القاهرة

سرقات .. غير أدبية

بقلم : الدكتور بدوي طبانة

هل هناك فرق بين أن يدس لص من اللصوص يده في جيبك ، فيستل منه حافظة نقودك ، أو يسطو على دارك ، فيسلبك أعز ما تملك من مال ومتاع ، وبين أن يغير امروء على أغلى ما تحرص عليه من ثمرات ذكائك وجهدك التي أذبلت فيها زهرة شبابك ، وأرقت فيها عصارة حياتك ، وأذبت فيها نور عينيك ، وكان لك بها شأن في العالمين ؟

ان لصوص الجيوب وسراق البيوت قد يستحون من الناس ، فيجهدون في تحين الفرصة وانتهاز الغفلة ، متوارين عن الأنظار في هدأة من الليل ، وفي مأمن من الرقباء ، ثم لا ينتفعون بأسلابهم الا بعد حين ، اذا اطمأنوا بما سلبوا ، وظنوا أنهم بمنجاة من العقاب ، وما أسرع أن يستدل عليهم ، ويستنقذ منهم ما سطوا عليه ، ثم يساقون الى حيث يلقون الخزي جزاء بما كسبوا .

ولكن عالم الفكر والفن عالم آخر يختلف كثيراً عن عالم المادة ، اذ هو يمثل عالم الطهر والصفاء ، ويمتاز بتحليق أصحابه في آفاق بعيدة ، والهبوط بثمرات ذلك التحليق الى دنيا الناس ليشاركوهم فيما أفادوا من رحلات الفكر في عالم السمو الذي تقصر عن بلوغه عقول العامة .

وتلك الثمرات التي يقطفها المفكرون وأرباب الفنون قد تتباين صورها ، وتختلف أشكالها ، ولكنها مع ذلك التباين والاختلاف متقاربة الغايات والأهداف في ائتلافها جميعا لخير الانسانية والسمو بالمدارك والعواطف ، والسير بالانسانية في طريق الحياة السعيدة الكريمة ، وغير ذلك من الغايات الشريفة التي يحبس المفكرون نفوسهم في سبيلها ، ولا يجروء على اقتحام صومعاتهم أو تعكير صفوهم الا لصوص الأفكار .

ولذلك كان لصوص الأفكار أشد ضراوة من سراق الجيوب والبيوت ، لأنهم يسرقون في وضح النهار ثم يدعون لأنفسهم ما سرقوا من بنات الأفكار وخلاصة التأملات وثمرات العبقرية ، ثم ينشرون ذلك في الناس استخفافا بهم ، وغرورا بغفلتهم . ثم يكبرهم بذلك الذين لا يعرفون مصادرهم ومواردهم ، ويحظون بما أملوا من الصيت الزائف والكسب المحرم ، ولذلك قال الحريري في احدى مقاماته : « واستراق الشعر عند الشعراء ، أفظع من سرقة البيضاء والصفراء ، وغيرتهم على بنات الأفكار ، كغيرتهم على البنات الأبكار »

وكان السري يتهم الشاعرين المجيدين بالاغارة على شعره ، وعلى شعر غيره من الفحول السابقين ، فقال في وصفهما من أبيات يحذر فيها من سطوهما :

شنّا على الآداب أقبح غـارة ... جرحت قلـوب محاسن الآداب
فحذار مـن نفثات صلّي قـفرة ... وحـذار من فتكات ليثي غاب
لا يسلبـان اخـا الثراء وانـما ... يتنـاهبـان نتـائج الالباب

وهكذا أعظم الأقدمون السطو على آثار الأدباء ونتاج العباقرة وعدوا ذلك أفدح من جريمة السطو على المال والمتاع .

* * *

ومن الظواهر المثيرة في حياتنا العلمية والأدبية ما تنشره بعض الصحف والمجلات العربية من أحاديث يكشف فيها كاتبوها عن بعض ما وقفوا عليه من اغارات المعاصرين على شيء من النتاج الفكري أو الفني الذي عرفوا أصحابه الاصلاء من المفكرين والأدباء ، وكثيرا ما يؤيدون حججهم في ثبوت الاغارة أو السرقة بالمقابلة بين النصوص في الأصول المسروقة وفيما ادعاه السراق ، ونسبوه الى علمهم الواسع ، أو فنهم المستطرف .

بل ان من هؤلاء الذين يحرصون على ثبوت السرقة من يذهبون في سبل دعواهم وتأييدهم بالبينة ، الى تصوير صفحات كاملة من المسروق ومن أصله ، حتى يقارن القارىء ما بينهما ، فلا يحتاج بعد ذلك في ثبوت السرقة الى بينة أو دليل يحتاج الى كد الأذهان في اقتناعه به .

وقد برزت هذه الظاهرة الخطيرة في السنوات الأخيرة ، وفي هذه الأيام بالذات الى درجة تلفت النظر وتقتضي التفكير في أسبابها ، ووسائل علاجها ، حتى أصبحت حديث الخاصة من أهل العلوم والفنون ، وربما تجاوزتهم الى عامة القراء ، فغرست في نفوسهم بذور الشك والارتياب في اصالة كثيرين ممن كانوا يكبرونهم ، ويعدونهم من العلماء والمفكرين ، أو الأدباء النابهين ، أو النقاد الذين كانوا يشهدون لهم بصحة النظر ، أو التجديد في الاتجاهات الفنية أو الأعمال الأدبية التي احتلوا بها منازل رفيعة من نفوسهم .

واذا كنا نسلم بقول القاضي الجرجاني في السرقة بأنها داء قديم ، وعيب عتيق ، والتماسه العذر للشعراء من أهل عصره وممن بعدهم بأن المتقدمين قد استغرقوا المعاني ، وسبقوا اليها ، وأتوا على معظمها ، ولم يتركوا منها الا بقايا تركوها رغبة عنها ، واستهانة بها ، أو لبعد مطلبها ، واعتياص مرامها ، وتعذر الوصول اليها — فقد كان الجرجاني قاضيا صناعته العدل بين الناس ، والفصل في خصوماتهم ، ورد الحقوق الى أربابها . ولذلك التمس العلل والمعاذير عندما عرض لهذا الموضوع الذي يقتضي التثبت واليقين ، وقياس الأشباه والنظائر قبل القطع واليقين ، ورأى أن الشاعر ما زال يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه .

ولهذا السبب تراه يتحرج في الحكم بالسرقة ، بل هو يحظر على نفسه ، ولا يرى لغيره بت الحكم على شاعر بالسرقة الا اذا رأى العين تمام التطابق في المعاني والصور والألفاظ ، ويقول أنه متى أجهد أحدنا نفسه ، وأعمل فكره ، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريبا مبتدعا ، ونظم بيتا يحسبه فردا مخترعا ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه ، أو يجد له مثالا يغض من حسنه !

وأيا ما كان حظ هذا الكلام من الصواب فقد كان ما استشهد به مما أورده تأييدا لوجهة نظره لا يعدو البيت أو الأبيات القليلة من الشعر التي تتشابه في أفكارها أو تتقارب في معانيها . وقد تصور القاضي — كما يفهم من عبارته السابقة — الندرة في ابتكار المعاني الشعرية ، مع أنه يشير في هذا المعرض الى المعنى الواحد أو البيت الواحد الذي لا يعدم الشبيه ، ولا يعجز العثور عليه بعد تصفح الدواوين الكثيرة .

وقلما أخذ الشاعر معنى بأسره ، أو بيتا بجملته من غير أن يغير فيه ، بأن يكسوه عبارة جديدة ، أو ينقله من الغرض الذي أنشد فيه الى غرض آخر ، أو يوجز فيه ، أو يقلبه الى صورة أبهى وآنق من صورة الأصل الذي احتذاه .. أو غير تلك الأسباب من وسائل الافتنان الكثيرة التي ألم بها الذين عالجوا موضوع السرقة أو الاحتذاء من قدامى الباحثين والنقاد من أمثال القاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري وضياء الدين بن الأثير ، وان اعترف هؤلاء جميعا بصعوبة البحث ، ووعورة المسلك في الاهتداء الى مواطن المتابعة ، ومواضع افادة السابق من اللاحق . وقد عد أبو هلال من تمام الحذق أن يخفي الآخذ دبيبه الى المعنى ، يأخذه في سترة ، فيحكم له بالسبق اليه أكثر من يمر به !

ذلك جل ما دار حوله حديث القدامى ، وما استعظموه أو ما دافعوا عن جواز وقوعه من افادة الشعراء بعضهم من بعض ، أو اغارة بعضهم على بعض في البيت الواحد ، أو في الأبيات المعدودة .

ولكن أحاديث هذا الزمان أشد عجبا ..

شاعر أو مدّعٍ للشعر ينتحل لنفسه قصيدة بتمامها ، أو قصائد بأكملها ! .

وأديب كبير من الذين أعظمهم جيل من الأدباء والمتأدبين يترجم قصائد كاملة بعنواناتها ومعانيها وأخيلتها وصورها من احدى اللغات الأجنبية الى اللغة العربية ، ثم يستخلصها لنفسه ، وينشرها باسمه ، ويضمها الى ديوانه . وليس له منها سوى الترجمة والنقل من لسان الى لسان !

وكاتب ، بل كتاب ، من الذين تلمع أسماؤهم في الصحف والمجلات ، وممن يوصفون بالابداع والتجديد ، ثم لا يلبث الخداع الا قليلا ، وسرعان ما ينكشف الستار عن سرقة مفضوحة ، وسطو شنيع ، واذا الغشاوة تنجلي عن القلوب ، بعد أن يزول الصدأ عن العيون !

وما أريد أن أذكر في هذا المقام أسماء ، فما أردت الى تجريح أحد ، ولا الى النيل من كرامة انسان ، وأنا أتكلم عن أعمال ، ولا أتحدث عن أشخاص .

وقد كفانا مئونة التصريح والتعريض كثير من أهل المتابعة والتحقيق ، الذين نشروا على الناس دعاواهم مقرونة بأدلتها وحججها البينة التي لا تحتاج الى مزيد ، كما ذكروا أسماء السراق ، ووضعوا النقط على الحروف ، كما يقول .

وحدثني واحد من الشعراء المعروفين عن نفسه أنه قرض كثيرا من الشعر ، وألف كثيرا من القصائد ، ثم قدمها لقمة سائغة وغنيمة باردة لواحد من الاعلام المعدودين في دولة الشعر المعاصر ، فألقاها في مناسبات كثيرة ، وأمتع الناس بها في محافل حاشدة ، وسجلها بعد فيما نشر من شعره .

وكان هذا الشاعر يتوقع أن ينال الكثير من خير ذلك الشاعر الكبير ، ومن بعض ما أنعم الله به عليه من الجاه والثراء . فلما خاب فيما أمل ، طفق يذيع هذا النبأ العجيب الذي يثل أوطد الأمجاد ، ويزري بمروءة الرجال وكراماتهم ، ويصوب نحو عبقريتهم المعروفة سهام الشك والارتياب .

وهي على كل حال دعوى يعوزها الدليل والبيئة وليس من شرعة الانصاف قبول هذه الرواية على علاتها ، فعلم ذلك عند الله وعند الشاعر المعروف والشاعر العملاق الذي يشار اليه بالبنان ، وهما شريكان في المسؤولية ان صدقت الرواية ، وان كذبت فلعنة الله على الكاذبين .

وهناك أغنية محببة الى الجماهير يتنافس في انشادها مطرب معروف ومطربة معروفة ، وترددها الاذاعات استجابة لرغبة الجماهير التي تعجب بكلماتها ، وتطرب لنغماتها . وفي كل مرة يحرص المذيعون على أن يقدموا هذه الأغنية باسم مؤلفها الذي يتمتع بمكانة مرموقة .

ولكن بعض العارفين تعلو شفاههم ابتسامة العجب والسخرية اذا سمعوا نسبة أبيات هذه الأغنية الى من تردده الاذاعات ، ويؤكدون أنهم قرأوها بأعينهم منشورة واستمعوا اليها من صاحبها الأصيل ، وهو شاعر عربي معروف .

ويذهب بعض أولئك العارفين الى أن صاحب الجاه العريض اشترى أبيات تلك الأغنية بمال كثير نقده صاحبها ، في حين أن بعضهم يذهب الى أنه اغتصبها واستولى عليها عنوة واقتدارا .

ولعل ذلك يقرب من ضرب من ضروب السرقة خصه القدامى باسم « الاغرة » وهي عندهم أن يصنع الشاعر بيتا ويخترع معنى مليحا ، فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا ، فيروى له دون قائله ، كما فعل الفرزدق بجميل بن معمر ، وقد سمعه ينشد :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا　　وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

فقال : الفرزدق : متى كان الملك في بني عذرة ؟ انما هو في مضر ، وأنا شاعرها فغلب الفرزدق على البيت ، ولم يتركه جميل ، ولا أسقطه من شعره . وقد زعم بعض الرواة أن الفرزدق قال لجميل : تجاف لي عنه ، فتجافى جميل عنه .

بل لعل هذا الضرب أشبه بما يخصونه باسم « المرافدة » وهي عندهم ان يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له ، كما قال جرير لذي الرمة : انشدني ما قلت لهشام المرئي ، فأنشده قصيدته :

نبت عيناك عن طلل بحزوى　　محته الريح وامتنع القطارا

فقال له جرير : الا أعينك ؟ قال : بلى بأبي أنت وأمي : قال قل له :

يعد الناسبون الى تميم　　بيوت المجد أربعة كبارا

يعدون الرباب وآل سعد　　وعمرا ثم حنظلة الخيارا

ويهلك بينها المرئي لغوا　　كما ألغيت في الدية الحوارا

فلقيه الفرزدق فاستنشده ، فلما بلغ هذه قال : جيد ، أعده ! فأعاده ، فقال الفرزدق كلا ، والله لقد علكهن من هو أشد لحيين منك ، هذا شعر ابن المراغة !

واسترفد هشام المرئي جريرا على ذي الرمة ، فقال في أبيات :

يماشي عديا لؤمها ما تجنه　　من الناس ما ماشت عديا ظلالها

فقل لعدي تستعن بنسائها　　على فقد أعيا عديا رجالها

فقال ذو الرمة لما سمعها : يا ويلتا هذا والله شعر حنظلي ، وغلب هشام على ذي الرمة ، بعد أن كان ذو الرمة مستعليا عليه .

وقد استرفد نابغة بني ذبيان زهيرا ، فأمر ابنه كعبا فرفده ! قالوا : وقد يستوهب الشاعر البيتين والثلاثة وأكثر من ذلك اذا كانت شبيهة بطريقته ، ولا يعد ذلك عيبا لأنه يقدر على عمل مثلها ، ولا يجوز ذلك الا للحاذق المبرز !

وكان هذا كله في عالم الشعر كما رأينا ، وكان لا يعدو البيت الواحد أو الأبيات القليلة كما قدمنا .

ولكننا في هذا الزمن العجيب نرى القصائد الكاملة تستلب من أصحابها .

ونرى المقالات والبحوث الضافية تنهش من كاتبيها .

بل رأينا الكتب العلمية تغتصب من مؤلفيها .

وفي هذا الزمن العجيب رأينا البلوى لا تختص بها فئة ممن يقولون أو يكتبون دون فئة غيرها .

فليس الشعراء أوفر حظاً من الكتاب في انتهاب آثار الغير . وليس الأدباء أدنى حظا من النقاد في هذا المضمار . وليس الأدباء أو النقاد أوفر حظا في هذا الباب ممن يدعون العلم .

وهكذا عمّت البلوى ، فلم تعد مقصورة على الكاتبين في الصحف والمجلات ، أو على الشعراء الذين يباهون بفنهم وينشرونه في الدواوين ، ولكنها تجاوزتهم الى من يجلسون من الناس مجالس الحكماء ، فامتهنوا كرامة العلم ، واستهانوا بحقوق ذوي الاصالة المتميزة من أهل المعرفة الصحيحة ، حتى تجاوز الأمر حدود الإفادة من الفكرة ، والنسج على منوالها كما يفعل الذين بقيت فيهم بقية من الحياء ، الى النقل الحرفي لكل كلمة وكل عنوان في كتب معروفة وبحوث منشورة .

وأعجب من هذا أن تنتقل العدوى الى الجامعات ، وهي مبعث النور والحكمة ، والصورة الباقية لعالم المثل الرفيعة والمبادىء الشريفة ، فيكون ممن ينتسبون اليها مثل ما تنشره الصحف من اغارات بعضهم على نتاج الأحياء ، وتراث الذين طوى شخوصهم الردى تحت التراب .

وفي بعض الأحيان يصغي الحريصون على شهود مناقشات الرسائل الجامعية الى بعض أعضاء لجان المناقشة والتحكيم وهم يأخذون بتلابيب بعض أصحاب تلك الرسائل ، ويدينونهم بالسرقة ، ويقدمون أمام جمهور المشاهدين الوثائق التي تؤيد دعواهم . ويفحم الطالب ، فلا يحير جوابا أمام هول المفاجأة ، وأمام التهمة النكراء التي لا يستطيع الفكاك منها أو المماراة فيها .

فاذا خلا أعضاء اللجنة للمداولة ، لبث الحاضرون يترقبون قرارها مستعظمين هذا الاثم ، ومتسائلين : كيف فات ذلك على الأستاذ المشرف ؟ وأين كان علمه الفياض واطلاعه الواسع ؟

ولا تلبث الحيرة أن تزول ، ليحل محلها العجب المذهل حين يستمعون الى صوت رئيس اللجنة يدوي على ملأ من الناس معلنا قرارها باستحقاق ذلك الطالب الذكي الدرجة العلمية الرفيعة مصحوبة بدرجة الشرف المرموقة جزاء وفاقا على فعلته النكراء !

وهكذا تهون كرامة العلم والعلماء ، وكأن السرقة السافرة أصبحت أمرا مشروعا .

° ° °

وقد يكون بعض الذين يوالون الكتابة السريعة في الصحف والمجلات معذورين اذا ما يسر لهم وسواسهم سبيل السطو والاغارة ، وأعجلهم الوقت ، فلم يدع لهم فرصة للتأمل أو للتفكير في تخير الموضوعات التي يعالجونها ، وتمحيص الأفكار التي يحشدونها ، فيتلقطون طرائف الموضوعات ، وغرائب الأفكار ، ثم ينشرونها في الناس ، ليشهدوا لهم بالعبقرية والنبوغ ، ويعترفوا بقدرتهم الفائقة على التجدد والتجديد ، ومن ثم يحصلون على ما يشاءون من المجد أو من ذلك الطريق الذي لا يجدون طريقا سواه لكسب الأموال ، أو تحصيل الأمجاد .

واذا كان ذلك قد يغفر — ولا أظنه يغفر — لأولئك الذين يطلبون العيش ، لما جرى من القول المأثور بأن طالب القوت ما تعدى ، فانه لا يغفر لواحد من أولئك الذين وسع الله أمامهم سبل الرزق ، ومهد لهم طرق المجد ، الا اذا كان الجوع قد تأصل في نفوسهم ، واستحكم في طباعهم ، فيصبحون ويمسون ظماء وفي البحار أفواههم ، على الرغم من أن الظروف قد وضعتهم في مواضع الحكماء وجعلتهم قادة يلقنون الناس أصول الحكمة والسداد .

ومثل هؤلاء لا عذر لهم فيعتذرون عن تلك الاغارات الشنيعة على ثمرات الجهود العقلية ، وخلاصة التجارب المريرة التي بذل أصحابها فيها زهرة شبابهم ونور عيونهم .

وبعد ، فما دلالة تفشي هذه الظاهرة المشينة بصورة ملحوظة في زماننا ؟

وقد يكون من الممكن تعليل تلك الظاهرة بالافلاس الفكري أو الفني بمعنى نضوب الملكات واقفارها ، وعجزها عن التجديد أو الابتكار .

وهذا التعليل يشبه الى حد كبير قول من يقول ان اللص انما يضطر الى السرقة اضطرارا اذا لم يجد ما يطعمه مما يقيم أوده ، ويحفظ عليه حياته !

وهو تعليل غير صحيح ، أو هو في الأقل تعليل غير مطرد ، بدليل ان كثيرا من أولئك اللصوص لا يشكون الفاقة ولا يسرقون من الخصاصة ، بل انهم قد يملكون من المال والمتاع ما يكفل لهم العيش الحلال والحياة الشريفة من غير مكابدة أو عناء ، ومن أولئك السراق من يكون في حيازتهم أضعاف ما يملك ضحاياهم من المسروقين والمنهوبين . ومن الفقراء المعدمين الذين لا يجدون القوت من هم أعف نفسا ، وأنبل مقصدا . لست أرى ما يراه كثير من النقاد الذين يذهبون الى أن الأسلاف قد استنفدوا المعاني والأفكار ، واستهلكوا خير ما فيها ، ولم يعد في استطاعة الأخلاف الا أن يتلقطوا فتات موائدهم ، اذا كانوا يستحون من السطو على جل فيها .

ذلك أن أبواب التجديد والابتكار لا يمكن أن توصد ، ولا يمكن القول بأن العقول الانسانية يمكن أن تتوقف ، ولا يمكن للعواطف الانسانية أن تتجمد الا اذا توقفت الخطى الانسانية عن المسير .

وما يزال الفكر الانساني يعمل ويبني ويجدد ، وآثار هذا التجدد في مناحي التفكير المختلفة شاخصة لا تحتاج الى دليل يؤكدها ، فقد شهدت الانسانية في عصرنا من آيات الاجادة الماثلة ما كان حلما من أحلام الأزمان الماضية ، والأجيال المتباينة ، بل ما لم يكن يخطر ببال أحد من الغابرين .

ولكني مع هذا أوافق رأي القائلين بإفلاس هذا النفر من لصوص العلم وسراق الفنون افلاسا فكريا وفنيا ، اذ لو كان لديهم شيء من آثار الملكة المحدودة لكان لهم ما يتقدمون به الى الناس عامة والى طلاب المعرفة خاصة ، ولكان لهم من امداد عبقرياتهم وملكاتهم ما يقولون وما يكتبون ، وما رضوا لأنفسهم أن ينهجوا ذلك النهج المشين في السطو على أعمال الناس ، واقتناص ما يستطيعون منها .

وأضيف الى هذا الافلاس افلاسا آخر أشد منه خطرا ، وأبعد أثرا ، وهو الافلاس الخلقي الذي ييسر لصاحبه الاستخفاف بحقوق الآخرين ، والكسب المادي أو المعنوي من غير طريقه المشروع . وفي ذلك ما فيه من المجاهرة بالرذيلة والعبث بالقيم الانسانية والفضائل النفسية ■

د. بدوي طبانة — القاهرة

دور الجامعة السعودية

تنهض الأمم بمقدار ما يتمتع به أبناؤها من مستوى علمي ، ومن هذا المنطلق راحت حكومة المملكة العربية السعودية تكرس الجهود وتنفق الأموال في سبيل نشر التعليم وتعميمه بين جميع المواطنين ، بفضل ما أسبغه الله عليها من نعم وفيرة ، لتبني القاعدة الصلبة التي عليها تقوم دعائم النهضة الصناعية والاقتصادية التي تتطلع الى تحقيقها . فالمشاريع الضخمة التي تضطلع بها الدولة تحتاج الى أعداد كبيرة من الفنيين والخبراء والمهندسين والاداريين وغير ذلك من الكفاءات التي لا غنى عنها لنجاح تلك المشاريع . ولذا فقد أولت حكومة المملكة هذه الناحية اهتماما كبيرا فأوجدت المعاهد الفنية ، ومراكز التدريب المهني ، والكليات المتخصصة ، وأحدثت برامج التأهيل الصناعي ، كل ذلك لتخريج ما تحتاجه المملكة من طاقات بشرية مؤهلة قادرة على النهوض بأعباء هذه الأعمال الحيوية والمشاريع الانمائية على أكمل وجه . وبينما تتضافر جهود أجهزة الدولة في هذا السبيل ، نجد أن العبء الأكبر في اعداد القوى العاملة المدربة وتوفير الكفاءات العلمية والخبرات الفنية المتنوعة التي تتطلبها قطاعات التنمية ، يقع على كاهل المؤسسات التعليمية بمختلف مستوياتها وتخصصاتها واتجاهاتها ، مع ادراكها لأهمية وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقها .

ولما كان موضوع توفير الامكانات البشرية يشغل أذهان الكثيرين ، فقد بادرت «كلية البترول والمعادن » بالظهران الى عقد مؤتمر علمي نظمت خلاله ثلاث ندوات تناولت دور الجامعة السعودية في مجال التنمية الصناعية والاقتصادية . وقد سبق للقافلة أن نشرت على صفحات عددين سابقين تفاصيل الندوتين المتعلقتين بالخدمات العامة والأبحاث . وها نحن نستعرض تفاصيل الندوة الثالثة في هذا العدد التي تتناول موضوع القوى العاملة ، وقد استضافت الكلية للاضطلاع بادارة الندوة سمو الأمير بندر بن عبد الله بن عبد الرحمن ، من كبار موظفي وزارة الداخلية ، وشارك فيها سمو الأمير خالد بن فهد بن خالد ، وكيل وزارة المعارف للشؤون الفنية والادارية ، وسمو الأمير فيصل بن عبد العزيز الفيصل ، مدير عام البعثات الخارجية في وزارة المعارف ، وسعادة الدكتور بكر عبد الله بن بكر ، عميد كلية البترول والمعادن بالظهران ، وعدد من ذوي الاختصاص من جامعة الرياض ، وكلية البترول والمعادن ، ومؤسسة بترومين ، ومعهد الادارة العامة .

وقد افتتح الندوة سمو الأمير بندر بن عبدالله ابن عبد الرحمن ، وسار النقاش فيها على النحو التالي :

الأمير بندر بن عبد الله : قبل أن نمضي قدما في ندوتنا هذه أود أن أشير الى أننا مجتمعون هنا لتبادل الآراء ومناقشتها حول موضوع يعتبر من أكثر الموضوعات اتصالا بالتنمية الاقتصادية والصناعية في المملكة ، ألا وهو ايجاد القوى

سمو الأمير بندر بن عبد الله بن عبد الرحمن الجالس الى يسار الصورة يدير دفة النقاش حول الوسائل الفعالة لتطوير القوى العاملة التي تحتاجها المملكة في المرحلة الراهنة من نموها .



في التنمية الصناعية والاقتصادية

ندوة القوى العاملة (٣)

العاملة المدربة باعتبارها الركيزة الأساسية للتقدم الصناعي . ان توفير الأيدي العاملة المؤهلة ، من حيث وجود الرجل المناسب في المكان المناسب ، أمر يتطلب جهودا ضخمة ، لعل جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية العليا ومراكز التدريب المهني لدينا تتحمل العبء الأكبر منها . واني على يقين من أن كلا منكم يشعر بحجم هذه المشكلة وأبعادها وآثارها على مجالات التنمية في المملكة . ولا يفوتني أن أذكر في هذا الصدد أنني حضرت منذ مدة وجيزة اجتماعا للمدراء العامين مع بعض الخبراء لمناقشة موضوع الخبرات التي تحتاجها المملكة في مدى السنوات الخمس القادمة ، وتبين من الاحصاءات أن البلاد ستحتاج الى نحو ١٥٠٠٠ وظيفة جديدة تخصصية . ولا يستطيع المرء ازاء هذا العدد الضخم من الخبرات المطلوبة إلا أن يفكر في كيفية توفيرها للقطاعات المختلفة. وهي مشكلة تواجهها كل أجهزة الدولة . فلا غرو والحالة هذه أن نرى التنافس على أشده بين الوزارات والمرافق الحكومية والمؤسسات الأهلية في تأمين الخبرات اللازمة لها ، ومن ثم التسابق للحصول عليها . ومع أن هذا التنافس في حد ذاته صحي حتى هذه اللحظة ، الا ان المشكلة الاساسية تكمن في كيفية التوصل الى أنجع السبل لتوفير مثل هذه الخبرات في المجالات المطلوبة على المدى القريب والبعيد . واني لسعيد جداً أن أرى بيننا من يمثل بعض الاجهزة المهيمنة على مسار التعليم والتدريب بمختلف مستوياته ، ولعلهم يلقون بعض الضوء على جوانب هذه القضية ، رغم عدم اتضاح الرؤية ، وعدم توفر معالم محددة للندوة نلتزم بها .

الأمير خالد بن فهد : بصفتي أمثل وزارة المعارف التي تعتبر الجهاز الأم لجميع مؤسساتنا التعليمية التي تتناول اليوم دورها في تطوير القوى البشرية في المملكة أشارككم النقاش بهذا الصدد . ولعل من المفارقات الغريبة أن أذكر انه منذ بضع سنوات كانت الجامعات والكليات ومؤسسات التعليم العالي لدينا تشكو من قلة المتقدمين اليها من خريجي المدارس الثانوية . أما اليوم ومع الازدياد المطرد في عدد المدارس الثانوية والاقبال الشديد على التعليم فقد انقلب الوضع رأسا على عقب ، اذ ارتفع عدد المتقدمين اليها ارتفاعا حادا أصبح معه استيعاب الجامعات للأعداد الهائلة من حملة التوجيهية من الصعوبة بمكان . بل ان نحو النصف من حملة شهادة الدراسة الثانوية لهذا العام لم يتسن له مواصلة الدراسة لاقفال أبواب القبول في الجامعات ، ولذا التحق البعض بوظائف حكومية بسيطة ، والبعض الآخر سافر الى الخارج لمواصلة دراسته على حسابه الخاص . فما أحرانا والحالة هذه أن نبحث عن علاج ناجع لهذه المشكلة ، خاصة ونحن بحاجة ماسة الى طاقة بشرية متخصصة في وقت قصير . وهناك ناحية أخرى جديرة بالمناقشة وتداول الآراء ، تلك هي أن بعض كلياتنا ومؤسسات التعليم لدينا لا تعترف بمستوى

الاهتمام باد على الوجوه أثناء إدلاء أحد المشتركين برأيه في ندوة القوى العاملة .





جانب من ندوة القوى العاملة .

خريجي المدارس الثانوية ، وعليه فانها تعمد الى تنظيم ما يسمى بالمرحلة الاعدادية أو التحضيرية لهم قبل انتظامهم في مرحلة الدراسة الجامعية بغية تقويتهم وسد ما يعانونه من نقص في نواح علمية معينة . فياحبذا لو تساهم هذه الكليات في وضع المناهج التعليمية للمرحلة الثانوية ، الأمر الذي سيساعد في تطويرها بما يتلاءم مع متطلباتها حتى لا يحس الطالب الملتحق بالكلية بفجوة تقف حائلا دون سيره بصورة مرضية في دراسته الجامعية ، وبذلك نختصر الزمن ونسهم في توفير التخصصات التي تحتاجها البلاد . وهناك موضوع الابتعاث ذو الصلة المباشرة بما تحتاجه أجهزة الدولة من تخصصات وخبرات ، وبودي لو يحظى هذا الموضوع بالقاء الضوء عليه من جانب ذوي العلاقة به .

الأمير بندر بن عبد الله : المعروف أن وزارة المعارف لديها برنامج للابتعاث يسير وفق خطة معينة ، بيد أن الوزارات الأخرى كالداخلية والدفاع تقوم بابتعاث موظفيها تمشيا مع احتياجاتها من الخبرات والتخصصات . والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو : لماذا لا تكون هناك خطة موحدة للابتعاث تنفذ بالاشتراك مع وزارة المعارف ؟

أعتقد أن الأمير فيصل بن عبد العزيز الفيصل ، بحكم صلته المباشرة بهذا الموضوع كمدير عام للبعثات الخارجية في وزارة المعارف ، يستطيع أن يتحدث الينا عنه .

الأمير فيصل بن عبدالعزيز الفيصل : بدأ الابتعاث في وزارة المعارف كبرنامج منظم في أواخر الخمسينات . وكان الدافع اليه أصلا عدم وجود مؤسسات للتعليم العالي في المملكة حينذاك ، لذا ارتأت وزارة المعارف ابتعاث عدد من الطلبة الى الولايات المتحدة وأوروبا كل عام لسد الفراغ الذي كانت تعانيه الدولة من عدم وجود الكفاءات العالية . وقد حققت تلك البعثات الخارجية نتائج طيبة ، دليل ذلك أن أفرادها يتسنمون اليوم المراكز الرئيسية في أجهزة الدولة وأجهزة التعليم في الجامعات والكليات والمعاهد العليا . وما لبث أن طرأ تغيير على برنامج الابتعاث في وزارة المعارف في أوائل الستينات بعد قيام جامعة الرياض بفروعها المتكاملة ، وانشاء جامعة الملك عبدالعزيز بجدة وكلية البترول والمعادن بالظهران ، اذ تبنت الوزارة خطة ، أصبح الابتعاث بمقتضاها مقصورا على الدراسات العليا والتخصصات غير المتوفرة في مؤسسات التعليم العالي في المملكة ، وكذا التخصصات الموجودة فعلا في المملكة ولكنها لا تفي بمتطلبات خطة التنمية الشاملة . فعلى سبيل المثال لدينا كلية الطب في جامعة الرياض، وهي لا تستطيع أن تنتج أكثر من مائة طبيب في غضون عشر سنوات ، وهو عدد ضئيل لا يسمن ولا يغني من جوع ، ولذا أبقينا باب الابتعاث في حقل الطب مفتوحا . لقد حاولت وزارة المعارف أن تضع خطة منسقة للابتعاث تشمل موظفي الدولة بالتعاون مع الادارات والوزارات المعنية مع الأخذ بعين الاعتبار النقص الذي تعانيه كل وزارة في القوى العاملة والتخصصات التي تحتاجها ، بيد أنه حتى الآن لم يتم التجاوب الشامل في هذا المجال . ان الاحصاءات والمعلومات المتوفرة لدينا تشير الى أن نسبة الفشل في البعثات الخارجية التي ترعاها بعض الأجهزة الحكومية تتجاوز أحيانا الخمسين بالمئة ومرد ذلك الى عدم التخطيط من ناحية ، والفشل أو التغيير في مجال التخصص من قبل المبتعث من ناحية أخرى . والنتيجة المترتبة على تغيير مجال التخصص هي أنه يتوفر لدينا من التخصصات ما لا تحتاجه الوزارة المعنية ، وقد يجد صاحب التخصص صعوبة في العثور على عمل مناسب له . فحبذا لو يتم وضع خطة شاملة للابتعاث مبنية علـى تنسيق متكامل وتخطيط سليم تشترك في تقريرهما أجهزة الدولة والمؤسسات العلمية العليا بالتعاون مع ادارة البعثات في وزارة المعارف .

الأمير بندر بن عبد الله : من الملاحظ أن تغيير التخصص يتسم بالمرونـة فيما يختص بمبتعثي وزارة المعارف ، فاذا حدث وغير مبتعث مجال تخصصه من الهندسة الكيميائية مثلا الى علم الاجتماع ، فانه عقب تخرجه يوجه الى ديوان الموظفين ليتولى أمر ايجاد عمل له يتلاءم مع تخصصه . بينما يختلف الوضع مع مبتعثي وزارتي الدفاع والداخلية اذ تفرض عليهم بعض القيود والالتزامات . وأرى أن مشكلة تغيير مجال التخصص تنشأ من الكيفية التي يتم بها اختيار الشخص المبتعث . ولكي نساهم في حلها يجدر بنا اتباع وسائل الاختيار الدقيق المبني على الموضوعية المطلقة .

د. صالح باخريبة : أعتقـد أن الجامعات ومؤسسات التعليم في بلادنا حسب تكوينها لا تستطيع سد احتياجات المملكة من الخبرات والقوى البشرية الا الى حد معين ومستوى معين هو مستوى ذوي المؤهلات العالية من مهندسين

أحد أساتذة كلية البترول والمعادن يشرح للضيو



وخبراء وغيرهم . والسؤال الذي أحب أن أطرحه هو : هل تستطيع الجامعات ومؤسسات التعليم أن تؤدي دورا ايجابيا في ايجاد فئة من القوى العاملة التي تحتاجها مجالات التنمية الصناعية في بلادنا ؟

الأمير بندر بن عبد الله : المفروض أن تتقاسم هذه المؤسسات هذا العبء وأن تتضافر جهودها في ايجاد تلك الفئة .

أحد الحاضرين : ان المملكة في وضعها الحالي تستطيع استيعاب أية كفاءة وأي مجال تخصصي . ولكن تواجهنا مسألة التنسيق في نوعية التخصصات التي تحتاجها المؤسسات الحكومية والأهلية ، وأعتقد أن « الهيئة المركزية للتخطيط » تلعب دورا في هذا المجال .

الأمير بندر بن عبد الله : لا شك في أن الهيئة المركزية للتخطيط تضطلع بموضوع كهذا ، بيد أن سياسة الابتعاث من أجل الحصول على التخصصات التي تحتاجها أجهزة الدولة تلعب هي الأخرى دورها في الموضوع كما سبق وان أوضحت ذلك .

الأمير خالد بن فهد : حينما نوقشت الخطة الخمسية الأولى فيما يتعلق بمسألة توفير القوى البشرية العاملة اتضح للقائمين عليها أن المؤسسات الحكومية والأهلية ما كانت لتجد بغيتها من الطاقة البشرية بسبب العجز في خريجي المدارس الثانوية . وقد سبق أن أشرت الى أن الدولة قد تغلبت على هذه المشكلة بافتتاح مدارس ثانوية في مناطق عديدة . الأمر الذي لم يلب حاجة تلك المؤسسات الى هذه الفئة من الطاقة البشرية فحسب ، بل أدى الى فائض من حملة التوجيهية الذي سدت أمامهم أبواب الجامعة ، لحدود امكانات الجامعات الموجودة حاليا في المملكة وعدم القدرة على استيعابهم ، وهي المشكلة الجديدة التي نواجهها اليوم . والمشكلة الأخرى التي تواجه جهاز التعليم في بلادنا هي نقص المدرسين لدينا . وأعتقد أن الجامعات ومؤسسات التعليم العالي عندنا مسؤولة الى حد ما عن هذا النقص ، اذ يمكنها أن تلعب دورا ايجابيا في تخفيف حدة هذه الأزمة التي تعانيها وزارة المعارف . فالمعروف أن كثيرا من الكليات وخاصة كليات العلوم والهندسة تأخذ خريجيها كمعيدين فيها لسنتين عقب التخرج وفق نظام متبع لديها . ولذا أقترح على هذه الكليات أن تعير معيديها الى وزارة المعارف في السنة الأولى ليعملوا في مدارسها ، ومن ثم يمكن اعادتهم الى كلياتهم وبذلك يكون المعيد قد اكتسب خبرة عملية قيّمة من جهة ، وساهم في حل مشكلة النقص في المدرسين لدينا من جهة أخرى .

د. سليمان السليم : ان مشكلة خريجي المدارس الثانوية التي أشار اليها سمو الأمير خالد بن فهد هي في الواقع مشكلة خطيرة ، فنحن في كلية التجارة التابعة لجامعة الرياض ، على سبيل المثال ، أقفلنا هذا العام باب التسجيل في وجه من كان معدله في شهادة الثانوية العامة دون ٦٨ بالمئة ، مع أننا حشدنا في الفصل الواحد حوالي ٥٠ طالبا . فهل ازاء هذا الوضع يتعين علينا فتح باب القبول على مصراعيه أمام الطلاب على حساب نوعية التدريس ، أو انشاء كليات جديدة ، أو اللجوء الى ابتعاث الطلاب الى الخارج ؟

الأستاذ علي الجهني : يبدو لي من سير النقاش أننا حتى الآن نركز على مشكلة الخريجين ، وما ذلك الا للحاجة الماسة الى القوى العاملة المدربة . وفي رأيي أنه يمكن توفير الطاقة البشرية عن طريق زيادة عدد الخريجين شريطة أن نضع نصب أعيننا الكفاءة العالية التي نتوخاها في هذه الطاقة . وأرى لحل هذه المشكلة أن نفتح أبواب كلياتنا ليلا لاستيعاب خريجي المدارس الثانوية ، وأن نستغل هذه الامكانات المتوفرة لدينا .

الأستاذ سعد الحصين : لنا أن نتساءل ونحن في خضم مشكلة الخريجين عن كيفية تطوير القوى العاملة المطلوبة ، ودور مؤسسات التعليم العالي في هذا المجال ، والعلاقة بينها وبين موضوع توفير القوى العاملة التي تحتاجها المملكة . ان هذا يدفعنا الى تحديد الأهداف الأساسية للتعليم العالي . فهل ينحصر الهدف في مجرد تخريج القوى العاملة المطلوبة أم يتعداه الى تطوير القوى العاملة المتوفرة لدينا عن طريق رفع مستواها الانتاجي ؟ ليس من شك في أن مؤسسات التعليم العالي تهدف أساسا الى تخريج فئات مسلحة بالعلم والخبرة لتضطلع بما يعهد اليها من أعمال مختلفة ، وهي قادرة في الوقت ذاته على الاسهام في رفع مستوى العاملين في محيطها عن طريق تنظيم برامج خاصة لهم يجري تنفيذها في أوقات تعيّنها الكلية في حدود امكاناتها . أما من ناحية قبول خريجي المدارس الثانوية في الكليات المختلفة ، فأعتقد أن لكل منها نظاما خاصا يفرض بعض المتطلبات التي لا بد من توفرها أو تلبيتها من قبل



تميزت ندوة القوى العاملة بالحوار الساخن الهادف .

ي بعض الأجهزة الحديثة في معامل الكلية .



المتقدم اليها ، وهو أمر لا يمكن تجاهله لأن أهداف الجامعة لا تنحصر في تخريج الطلاب كمّا ، بل يهمها الكيف أيضا .

الأستاذ بكر حسن : نلاحظ بوجه عام أن الطاقة الانتاجية لخريجي الجامعات العاملين في الأجهزة الحكومية وغيرها ليست بالمستوى الذي نتوخاه . وجدير بنا أن نفكر في الوسائل الكفيلة برفع طاقتهم الانتاجية ومقدرتهم العطائية .

الأمير فيصل بن عبد العزيز الفيصل : كل منا يدرك مانعانيه من نقص في القوى البشرية اللازمة لخطة التنمية في المملكة ، ولذا نحاول جاهدين التغلب على هذه المشكلة بايجاد أفضل الحلول وأسرعها ، بيد أننا ونحن في غمرة المحاولة نجد أنفسنا مكبلين بعاملين : أحدهما نظام التعليم السائد في بلادنا والذي يتسم بالطابع الستاتيكي (السكوني) لا الديناميكي ، والآخر التسارع الهائل في التقدم التكنولوجي الذي نحاول اللحاق به . فعندما بدأنا التعليم في المملكة استوردنا نظام التعليم من الخارج وطبقناه في بلادنا بسبب نقص الكفاءات عندنا آنذاك . تلك الخطوة في البداية كانت أمرا لا محيد عنه . أما أن نقف الآن حيال ذلك النظام جامدين بعد التطور السريع الذي شمل مرافق الدولة فذلك ما لا يتفق وما نصبو اليه من ايجاد القوى العاملة المؤهلة التي تسد حاجة القطاعات المختلفة في المملكة وحري بنا أن نتناول ذلك النظام بالتعديل والتكييف بما يتلاءم مع بيئتنا وحاجة بلادنا . لقد درجنا منذ وجد التعليم النظامي في بلادنا على أن تستغرق المرحلة الابتدائية ست سنوات ، والمرحلة المتوسطة ثلاث سنوات ، والثانوية ثلاث سنوات والجامعية بين أربع وخمس سنوات ، دون أن تمتد الى هذا التقسيم يد التغيير ودون ما مراعاة للظروف التي تمر بها المملكة ، واتخذنا ذلك قاعدة راسخة بل شيئا مسلما به . ولست أدري ما اذا كان المشتركون في هذه الندوة يشاركونني الرأي في اعادة النظر في نظام التعليم المتبع عندنا ككل . ان احصائية بسيطة نعرضها عليكم كافية لأن تدعو القائمين على أمور التعليم الى البحث عن مخرج لما نعانيه من نقص في الأيدي العاملة والطاقات البشرية المؤهلة . ان خطة التنمية الموضوعة تقتضي وجود ثلاثة آلاف طبيب سعودي في المملكة مع حلول عام ١٤٠٠هـ . من هذا العدد لدينا الآن نحو ١٢٠ طبيبا عاملا ، كما أن لدينا حوالي ٦٠٠ طالب يدرسون الطب خارج المملكة . أضف الى ذلك أن هناك نحو ٢٠٠ طبيب نتوقع تخرجهم من كلية الطب في جامعة الرياض في غضون السنوات السبع القادمة ، فمن هذه الاحصائية ندرك مدى العجز المتوقع في مجال الطب ، وهو قطاع ضيق من قطاعات التنمية المنشودة ، ومن ثم قس على ذلك ما سنحتاجه من فنيين ومهندسين ومدرسين وغيرهم . وعليه فلا أرى أن نلزم أنفسنا بنظام تعليمي مستورد يطبق في بلادنا تختلف عن المملكة ظروفا وأسلوب حياة .

الأستاذ عز الدين السعيد : طالما أن وجود القوى البشرية المؤهلة هو مبتغانا ، أرى أن نحدد نوعية هذه القوى ونوعية انتاجها حتى يتسنى لنا توفير أقوم السبل لتأمينها .فاذا كان ما نتطلع اليه هو أن يكون لدينا طاقة بشرية منتجة على الوجه الصحيح ومؤهلة تأهيلا كاملا فعلينا والحالة هذه أن نتغاضى عن طول الفترة اللازمة للتدريب والتأهيل . ان المملكة في وضعها الراهن لا تستطيع أن تؤمن القوى البشرية التي تحتاجها خطط التنمية ، فلا ضير أن نوجه أنظارنا الى مناطق عربية واسلامية لجلب الخبرات والكفاءات التي ثبت لديها نجاحها وفعاليتها في تحقيق أهدافها المرحلية . هذا ويجدر بنا أن ننظر الى المؤسسات التعليمية في بلادنا نظرة تتسم بالمرونة بصفتها المنتج للقوى البشرية المؤهلة ، وان نعاملها تبعا لذلك بطريقة تختلف عن معاملتنا للمؤسسات الانتاجية الأخرى .



أصحاب السمو الأمراء خالد بن فهد ، وفيصل بن عبدالعزيز الفيصل ، وبندر بن عبد الله ، يستمعون الى شرح أحد أساتذة كلية البترول والمعادن أثناء جولتهم بين معامل الكلية .



صاحب السمو الملكي الأمير سعد الفيصل يصحبه بعض الضيـ



جانب من الأجهزة العلمية الحديثة في أحد الفصول وقد استأثرت باهتمام عدد من الضيوف لدى جولتهم التفقدية لمعامل الكلية المختلفة التي تمثل حجر الزاوية في صرح النهضة الصناعية التي تنشدها المملكة .

الأمير خالد بن فهد : سبق وان ذكر أحد الاخوان أنه لا بد أن تكون لدينا سياسة واضحة للتعليم ، والواقع أن هناك سياسة للتعليم مرسومة ، صدرت منذ ثلاث سنوات بقرار من مجلس الوزراء وبقرار آخر من اللجنة العليا لسياسة التعليم ، بيد أن هذه السياسة تحتاج الى أن تترجم بالأفعال .

ونقطة أخرى أود ابداءها ألا وهي ما أورده البعض عن انخفاض المستوى العلمي للجامعات في حال قبولها أعدادا كبيرة من حملة التوجيهية . الغريب في الأمر أننا ونحن نتحدث عن المحافظة على المستوى العلمي الرفيع لجامعاتنا نعتمد على فئة مستوردة متخرجة من مؤسسات تعليمية أقل مستوى من مؤسساتنا ، هذه الفئة هي التي تقدم الخدمات الأساسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية . فكيف يتفق هذا مع ما ننشده من مستوى رفيع لجامعاتنا ؟ وكما تعلمون أن المملكة لديها مشاريع عديدة تتطلب قوى بشرية كافية للاضطلاع بها . ان دور وزارة المعارف يقف عند حد تخريج الطالب الثانوي ، أما بعد ذلك فتقع تبعته على مؤسسات التعليم العالي عندنا .

الأستاذ علي الجهني : اذا كانت المشكلة تنحصر في استيعاب خريجي الثانوية ، فأرى ايجاد مستويين في الجامعات والكليات يفي كل منهما بغرض معين ، وبذلك نوفر لمشاريعنا مستويات مختلفة من القوى البشرية ، كما هو الحال في كلية البترول والمعادن ، فلدينا الهندسة التطبيقية والهندسة العلمية ، ومع أنهما تخصص واحد شكلا ، الا أنهما مختلفان مستوى وعملا .

د. فهد الحسيني : نحن لا شك بحاجة الى عمال مهرة وفنيين (Technicians) ، فلماذا لا تكون هناك مؤسسات علمية أخرى تستقبل خريجي الثانوية من ذوي المستوى الذي لا يفي بمتطلبات الجامعات ؟

الأمير خالد بن فهد : ان المؤسسات التي تتحدث عنها موجودة فعلا ، إلا أن المشكلة تكمن في أن الطلاب يتطلعون الى المؤسسات العليا رغم الاغراءات الكبيرة والتسهيلات الجمة . وقد يعود ذلك الى قلة الأيدي العاملة الفنية التي تشرف على تلك المؤسسات . إلا أنه في السنوات القليلة الماضية بعد اجراء تعديلات على سياسة القبول فيها لوحظ اقبال ملموس عليها . ولدينا خطة للتوسع في مثل هذا النوع من التعليم مستقبلا لاستيعاب عدد أكبر من حملة التوجيهية .

د. سليمان السليم : مع أننا حاولنا حل مشكلة استيعاب الطلاب عن طريق الانتساب الى الجامعات ، فاننا لا نزال بحاجة الى عمال مهرة وفنيين أكفاء للقيام بمشاريع التنمية .

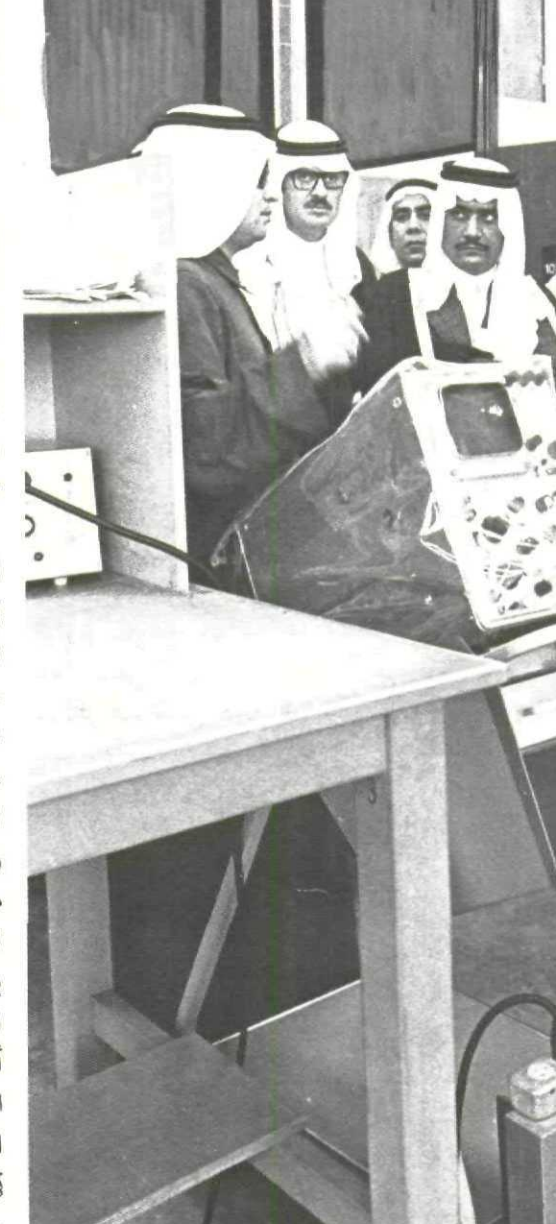
الأستاذ الطيب الدباغ : هل هناك خطة موضوعة من قبل جامعاتنا لتدريب طلابها على الحياة العملية ثم متابعة الاتصال بهم عقب تخرجهم ؟ أعتقد أن هذا أمر على جانب كبير من الأهمية ، وأرى أن تأخذه مؤسسات التعليم العالي عندنا بعين الاعتبار .

د. فهد الدخيل : تطرقنا الى دور المؤسسات في ايجاد الطاقة البشرية المؤهلة ، فهل لها دور في تنظيم دورات دراسية قصيرة «Short Courses» لموظفي الدولة بغية رفع كفاءاتهم وطاقاتهم الانتاجية ؟

الأمير بندر بن عبد الله : لدينا معهد الادارة العامة بالرياض الذي يقوم بتنظيم دورات مستمرة لموظفي الأجهزة الحكومية .

الأستاذ بكر حسن : هناك مشكلة نواجهها ، تلك هي التضخم في عدد حملة الشهادات وحشدهم في ادارة واحدة مما قد يتسبب في عرقلة العمل . فحبذا لو توخينا التنسيق في هذا المجال بين الوزارات والمؤسسات .

الأمير بندر بن عبد الله : لحل هذه المشكلة ينبغي أن نضع خطة عمل للخريجين وتوزيعهم توزيعا سليما على الأجهزة الحكومية والمؤسسات



جولة تفقدية لمعامل كلية البترول والمعادن .



سمو الأمير خالد بن فهد ، الجالس الى أقصى يمين الصورة ، يصغي باهتمام الى ما يقوله المشتركون في الندوة .   تصوير : شركة التصوير الوطنية/الخبر

المختلفة على نحو يحقق الأهداف المتوخاة . قد يكون التضخم ناشئا عن ظاهرة نفسية محضة تتلخص في أن الكثيرين من أبنائنا الخريجين يتطلعون الى احتلال المراكز الرئاسية فقط ، وهذا ما يؤدي على المدى الطويل الى خلق فجوات في تركيبنا الاقتصادي الذي نتوخى المتانة فيه عن طريق ايجاد القوى العاملة المؤهلة من مختلف المستويات والكفاءات .

الأستاذ محمد الخليفة : كنا نناقش مسألة ايجاد القوى العاملة التي تدخل في عملية الانتاج ، ولكننا لم نتطرق الى القوى العاملة الموجودة فعلا في قطاعاتنا المختلفة ، وكيفية رفع كفاءاتها . كما ذكر الأمير بندر بن عبد الله أن معهد الادارة العامة ينظم دورات تدريبية لموظفي الأجهزة الحكومية ، ولكن هل تقوم هذه الأجهزة بتقييم نتائج تلك الدورات عن طريق متابعة نشاطات الموظفين الذين التحقوا بها وعادوا لمزاولة أعمالهم ؟

الأمير فيصل بن عبد العزيز الفيصل : يحز في نفسي أن أجد أعدادا كبيرة من خريجي المدارس الثانوية لا يستطيعون ايجاد أماكن لهم في جامعاتنا وكلياتنا .

د. بكر عبد الله بن بكر : لدي اقتراحات كثيرة لحل هذه المشكلة ولكن ليس على حساب المستوى التعليمي الذي نحرص عليه والذي يجب ألا يكون موضوع نقاش . ومن بين هذه الحلول التي أقترحها توسعة الجامعات القائمة أو انشاء جامعات جديدة ، أو انشاء كليات على مستوى أقل ، أو انشاء كليات متوسطة ، « Junior Colleges » ورفع مرتبات الفنيين لتشجيع الطلاب على الالتحاق بها .

الأستاذ سعد الحصين : أقترح أيضا اعادة النظر في نظام القبول في الجامعات .

د. بكر عبد الله بن بكر : أرجو ألا نحاول تخفيض المستوى التعليمي في الجامعات . أما فكرة الأستاذ الجهني المتعلقة بالدراسات المسائية فهي فكرة ممتازة جديرة بالدراسة والمناقشة .

الأمير فيصل بن عبد العزيز الفيصل : أحيانا أفكر في اطار عام للمعايير التي نقيس بها جودة التعليم ونوعيته . لماذا لا نحاول أن نضغط الوقت اللازم لتخريج المهندس على سبيل المثال كما تفعل بعض الدول .

د. بكر عبد الله بن بكر : ان المشكلة هي سكانية بحتة ، وأعتقد أن مجموع الدرجات التي يحصل عليه الخريج لا يدل على مستواه العملي . يجب أن نزن ذلك بموازين أخرى بطرق مباشرة وغير مباشرة . والأهم من ذلك كله نجاح الخريج في حياته العملية .

وعند هذا الحد من النقاش قام سمو الأمير بندر بن عبد الله بتقديم عرض سريع للآراء ووجهات النظر المختلفة التي نوقشت حول موضوع القوى العاملة واستخلص منها نقاطا أساسية رأى أن تؤخذ بعين الاعتبار في مناقشات لاحقة ، لبلورتها ومن ثم الوصول الى قواعد صلبة لبناء طاقة بشرية مؤهلة قادرة على دفع عجلة التنمية الاقتصادية والصناعية المنشودة ■

سليمان نصر الله – هيئة التحرير

من حصاد الكتب

المسلمون رواد الموسوعات في العالم

"الفهرست" لابن النديم

عرض : الأستاذ سليم واكيم

تمهيد

كثيرون من الناس حتى المثقفون انفسهم يظنون ان اول من حقق الموسوعة المعروفة بالـ « Encyclopedia » هما « ديديرو – Diderot » و « دالمبير – D'Alembert » الفرنسيان في القرن الثامن عشر (١٧٥١ – ١٧٦٥) . ربما كان هذا الظن معقولاً اذا اكتفينا بالمعلومات الحديثة وبما بعث من علوم وآثار في اوروبا في اعقاب عصر النهضة . الا ان المطلعين يعرفون – ولا شك – كيف تطوّر علم الموسوعات او عملها ، اذا جاز التعبير ، وأن هذا التطور قد شمل آلاف السنين .

نعرف من التاريخ ومن الوقائع البديهية ان الموسوعة هي كناية عن قاموس موسع يشتمل على ما هو مفيد عادة من المعلومات ، او بالأحرى كناية عن فهرست يتناول الكلمات والافعال والاسماء والعلوم . واذا انطلقنا من اعتبار القاموس او « الفهرست » نواة للموسوعة ، نجد ان الانسان اكتشف اول قاموس في « نينوى » عاصمة أشور (العراق) ، ويعود تاريخه الى زمن « سنحريب » على الارجح في القرن السابع . وكان القاموس محفوراً بالحروف المسمارية على الآجر . وقد درج اليونانيون والرومان في العهد القديم على تصنيف القواميس ايضاً ، غير انهم حرصوا على الا تضم الا الكلمات الصعبة والجمل التي كانت تتطلب المزيد من الشرح والتفسير . وقد اعد بعضها لتفسير التعابير التي خلفها العصر الهوميري ، بينما اشتمل البعض الآخر على فن الطبخ . وهناك قاموس « زينودوتوس » الذي عني خصيصاً بأصوات الحيوانات . ولم تصدر قواميس جامعة يونانية او لاتينية الا في العصور الحديثة . وعلى سبيل المثال ، فقد صدر اول قاموس شامل في اللغة الانكليزية سنة ١٧٢١ اعده « ناتان بايلي – Bailey » بعنوان « The Universal Ethymological English Dict. » اما في اميركا ، فقد اصدر « وبستر – Webster » اول قاموس سنة ١٨٩٨ ، و « لاروس » في فرنسا منذ مائة عام ونيف .

كتاب « الفهرست » لابن النديم

من هو ابن النديم ؟ انه ابو الفرج محمد ابن ابي يعقوب اسحق النديم . وهو بغدادي ، يظن أنه كان وراقاً يبيع الكتب . وكان معتزلياً متشيعاً ، وقد عاش في القرن الرابع الهجري ، اي في العصر العباسي عصر بلوغ الثقافة الاسلامية الذروة في شتى العلوم ، وتوفي سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٧ م) . وقد عرّفنا به المؤرخ الكبير المقريزي احمد بن علي سنة ٨٢٤، ذلك المؤرخ الذي عاصر اجتياح فلول « هولاكو » والتتر وانكسار هؤلاء على يد المسلمين ، وأرخ هذه الحقبة بيراع قلما شهد التاريخ الاسلامي نظيره .

وقد طبع كتاب «الفهرست» ، للمرة الأولى في القاهرة ، نقلاً عن نسخة طبعها « جوستاف فلوجيل » في مدينة ليبزيغ الالمانية ، سنة ١٨٧٢ م . وفلوجيل هذا نقلها بدوره عن مخطوط انتقل مع معظم المخطوطات الاسلامية المكتوبة باللغة العربية الى اوروبا . ثم طبع للمرة الثانية منقحاً على اكمل وجه في طهران على يد رضا بن علي بن زين العابدين الحائري المازنوراني ١٣٩١هـ (١٩٧١م) .

وكتاب «الفهرست » ، او بالاحرى هذه الموسوعة ، قد فرضتها مستلزمات ذلك العصر الذهبي حيث عظم شأن العلماء وكثر التأليف والتصنيف في شتى ابواب المعرفة والعلوم ، وكثرت المكتبات العامة والخاصة ، فاشتدت الحاجة الى مجلدات تفهرس لهذه الكتب ، وتدل على المؤلفين وما صنفوه في مواضيع مختلفة ، ليسهل على الباحث ادراك مبتغاه في وقت وجيز ، فكان لفهرست ابن النديم الحظ الأوفر في سد هذه الحاجة وهو الكتاب الوحيد الذي لا يزال دليلاً مرشداً الى معرفة الكتب المؤلفة او المترجمة منذ البدء الحضاري من اواخر القرن الرابع الهجري .

لم يكن « ابن النديم » عالماً ولا فيلسوفاً ، انما كان ورّاقاً ، وعلى نصيب وافر من الثقافة والاطلاع . والوراقون اخبر الناس بالكتب واسمائها وموادها ، لا سيما اذا ما توفّر الصبر والميل الى العلوم والثقافة ومعرفة تقصي الأخبار من مصادرها ومراجعها . ويتبين من ترجمة المقريزي ان « ابن النديم » كان معاشراً للعلماء منذ سنة ٣٤٠ هـ . فأخذ على ما يبدو يجمع مواد كتابه حتى فرغ منه في عام ٣٧٧ للهجرة ، فقد ذكر في مقدمة كتابه « انه صنف سنة ٣٧٧ » ، وورد في موضع آخر منه « انه كتب سنه ٤١٢ » . وتفيد ترجمته انه توفي على حد قول المقريزي ، يوم الاربعاء لعشر من شعبان سنة ثمانين وثلثمائة للهجرة . وقال ابو طاهر الكرخي : « مات في شعبان سنة ثمان وثلاثين (يعني واربعمائة) (1) .

وبالنظر لأهمية هذه الموسوعة فقد قام الدكتور « بايارد دودج » عميد الكلية الأميركية في بيروت سابقاً بترجمتها الى الانكليزية ابّان وجوده في لبنان . وقد ضمت مجلدين ازدانا بالحواشي القيّمة . وقدّر للدكتور « بايارد دودج » ان يطلّع على افضل مخطوطة لهذه الموسوعة وهي مخطوطة « جستر بيتي » التي تحمل رقم – ٣٣١٥ والموجودة في « دبلن » عاصمة ايرلنده الجنوبية . وهناك مخطوطة « شهيد علي باشا » رقم – ١٩٣٤ الموجودة في مكتبة السليمانية في استانبول . وكلتا المخطوطتين تشكل نسخة واحدة من الكتاب للتشابه القريب في القطع والخط وسائر المواصفات الأخرى ، وتحتوي مخطوطة « جستر بيتي » على المقالات الأربع الأولى ونبذة من أول المقالة الخامسة التي تطبع الى وقتنا هذا . وفي المقالة الأولى من الكتاب صفحات ممزقة ، وقد كانت هذه المخطوطة من اوقاف مدرسة جامع عكا بفلسطين اوقفها احمد الجزار على ان لا تخرج من

الجامع ، ولكن يد الزمن الغادرة امتدت اليها فأخرجتها منه .

اما مخطوطة شهيد علي باشا فتبدأ مباشرة بترجمة « الواسطي ابي عبد الله محمد ابن زيد الواسطي » في الفن الأول من المقالة الخامسة وتمتد الى آخر المقالة العاشرة التي هي خاتمة الكتاب ، وعلى هذه النسخة تدوين يشير الى أنها ملك لرجل يسمى باسم « ولي الدين جارالله » ، وكذلك تدوين آخر للتملك نصه : « تملك العبد الفقير الى عون الغفور الودود مسعود بن ابراهيم ابن امر الله بن عبد طورش غفر الله له ولأسلافه ورضي عنهم بالشراء الشرعي بمدينة قسطنطينية المحروسة » . ويقول في صفحة أخرى : « وقف هذا الكتاب لله ولي الدين جارالله بشرط الا يخرج من خزانة بناها بجانب جامع سلطان محمد بقسطنطينية » .

ويبدو جلياً من المجلد الاخير المطبوع في طهران ان ناشره ومحققه « رضا تجدد » قد قارن بين هذه المخطوطة الاخيرة وبين طبعة المستشرق « فلوجيل » ، وقد بذل في سبيل ذلك جهوداً ضخمة جديرة بالتقدير والعرفان .

وفي ضوء ما تقدم نستخلص ان معظم المخطوطات الاسلامية القيمة ما يزال محفوظاً في عدد من المكتبات الأجنبية في الغرب ، وتوجد بينها آثار قيمة لا تقدر بثمن ، وان المزيد من العلوم الانسانية التي وردت اخيراً من الحضارة الغربية لا بد وانها متأثرة بالثقافة الاسلامية . ومن تدوين التملك على المخطوطات يبدو لنا ان هذه المخطوطات وبينها « الفهرست » كانت ثمينة وموضع التقدير حتى أوقفها « احمد باشا الجزار » ، والي عكا ، للجامع وكذلك « ولي الدين جارالله » الذي اوقفها لجامع سلطان محمد .

ولم تقتصر ابحاث ابن النديم في « الفهرست » على كتاب وعلماء عصره وأترابه ، ولا على المسلمين وحسب ، وانما شملت كل من عني بالبراع والقرطاس من جميع الامم في كل الأزمنة ابتداء من الفينيقيين والمصريين واليونانيين واللاتين حتى العرب قبل الاسلام والاعاجم .

محتوى فهرست ابن النديم

قسم ابن النديم كتابه الى عشرة اجزاء وعقب على عبارة الجزء — الذي هو عنوان رئيسي — عبارة مقالة ، بما معناه انه قسم مجلده الى عشر مقالات ، ثم قسم المقالات الى فنون . وقد ضمن الجزء الأول (او المقالة الأولى) اخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين واسماء كتبهم .

واستهل ابن النديم كتابه بالبسملة وقال : « استعنت بالله الواحد القهار . النفوس (اطال الله بقاء السيد الفاضل) تشرئب الى النتائج دون المقدمات ، وترتاح الى الغرض المقصود ، دون التطويل في العبارات . فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا ان كانت دالة على ما قصدناه في تأليفه ان شاء الله ، فنقول وبالله نستعين ، واياه نسأل الصلاة على جميع انبيائه وعباده المخلصين في طاعته . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

هذا فهرست كتب جميع الامم ، من العرب والعجم ، الموجود منها بلغة العرب في اصناف العلوم واخبار مصنفيها ، وطبقات مؤلفيها ، وأنسابهم ، وتاريخ مواليدهم ، ومبلغ اعمارهم ، واوقات وفاتهم ، واماكن بلدانهم ، ومناقبهم ، ومثالبهم ، منذ ابتداء كل علم اخترع الى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثماية للهجرة » .

ويحوي الكتاب — كما أشرنا — عشر مقالات ، وتحوى المقالة الاولى ثلاثة فنون . الفن الأول يتضمن وصف لغات الامم من العرب والعجم ، ونعوت اقلامها . وانواع خطوطها ، واشكال كتاباتها . والفن الثاني يتضمن اسماء كتب الشرائع المنزلة ، كما يذكره الاسلام ، ومذاهب اهلها . والفن الثالث نعت الكتاب الذي «**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » ، واسماء الكتب المصنفة في علومه ، واخبار القراء واسماء رواتهم والشواذ من قرائتهم .

اما المقالة الثانية أي الجزء الثاني ، فتشمل ثلاثة فنون في النحويين واللغويين . ويتضمن الفن الأول ابتداء النحو واخبار النحويين البصريين وفصحاء الأعراب ، واسماء كتبهم . ويتحدث الفن الثاني في اخبار النحويين واللغويين من الكوفيين واسماء كتبهم . اما الفن الثالث فيروي ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين واسماء كتبهم .

وتحدث عن « نفطويه » في الفن الثالث قائلاً : « انه ابو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عـرفة بن سليمان بن المغـيرة بن حبيب بن المهلب العتكي الأزدي . مولده سنة اربع واربعين ومائتين . وكان طاهر الأخلاق ، حسن المجالسة . وخلط المذهبين . وكان مجلسه في مسجد الانباريين بالغدوات . وتوفي في صفر لست خلون منه ، سنة ثلاث وعشرين وثلثمائه . ودفن ثاني يوم موته بباب الكوفة وصلى عليه ابن البوبهاري (الربهاري) . وله من الكتب : كتاب التاريخ ، وكتاب الاقتصارات ، وكتاب غريب القرآن ، وكتاب المقنع في النحو ، وكتاب الاستيفاء في الشروط ، وكتاب الأمثال ، وكتاب الشهادات ، وكتاب القوافي والرد على من زعم ان العرب تشتق الكلام بعضه من بعض ، وكتاب الرد على من قال بخلق القرآن ، وكتاب الرد على المفضل في نقضه على الخليل ، وكتاب الملح ، وكتاب المصادر ، وكتاب في ان العرب تتكلم طبعاً لا تعلماً » .

ويحتوي الجزء الثالث او المقالة الثالثة على ثلاثة فنون في الأخبار والآداب والسير والانساب . فالفن الأول يتضمن اخبار الاخباريين والرواة والنسّابين واصحاب السير والأحداث ، وأسماء كتبهم . والفن الثاني يروي أخبار الملوك والكتاب والمترسلين ، وعمال الخراج واصحاب الدواوين واسماء كتبهم . اما الفن الثالث ، فيشمل اخبار الندماء والجلساء (والأدباء) والمغنين والمضحكين واسماء كتبهم .

لنر ماذا يقول في الفن الثاني من هذا الجزء في ابن المقفع رداً على الجدل الادبي الذي اثير في الصحافة العربية مؤخراً حول الادب الكبير والادب الصغير . « اخبار عبدالله بن المقفع ، واسمه بالفارسية روزبه . وهو عبدالله بن المقفع ويكنى قبل اسلامه ابا عمرو ، فلما اسلم اكتفى بأبي محمد ، والمقفع بن المبارك وانما تقفع لان الحجاج بن يوسف ضربه بالبصرة في مال احتجزه من مال السلطان ، ضرباً مبرحاً ، فتقفعت يده . وأصله من خوز مدينة من كور في فارس . وكان يكتب اولاً لداود بن عمر بن هبيرة ، ثم كتب لعيسى بن علي ، على كرمان. وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة ، كاتباً شاعراً فصيحاً . وهو الذي عمل شرط عبدالله بن علي ، على المنصور وتصعب في

الاحتياط فيه فأحنظ ذلك ابا جعفر فلما قتله سفيان بن معاوية وقع ذلك من المنصور بالموافق، فلم يطلب بثأره ، وطل دمه . وكان احد النقلة من اللسان الفارسي الى العربي مضطلعاً باللغتين فصيحاً بهما . وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس منها : كتاب « خدا نامه » في السير ، « وكتاب آئين نامه » في الأين ، وكتاب « كليلة ودمنة » ، وكتاب « مزدك » ، وكتاب « التاج في سيرة انو شروان » ، وكتاب « الادب الكبير » وكتاب « الادب الصغير » ، وكتاب « اليتيمة في الرسائل » (كتاب رسائله، كتاب جوامع كليلة ودمنة ، كتاب رسالته في الصحابه) .

ثم خصص ابن النديم الجزء الرابع — المقالة الرابعــة — للشعر والشعراء . وضمن الفن الأول منها طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين المخضرمين ، وضاعت دواوينهم ، واسماء رواتهم . وضمن الفن الثاني طبقات الشعراء الاسلاميين والشعراء المحدثين الى عصره.

ففي الفن الأول اشار الى اسماء رواة القبائل واشعار الشعراء الجاهليين والاسلاميين الى اول دولة بني العباس . فبدأ بامرىء القيس ، وزهير بن ابي سلمى . وفند أسماء الشعراء الذين دوّن ابو سعيد السكري اشعارهم ، والكميت ، وذي الرّمه ، والمنتجع بن نبهان ، والعجاج الراجز ، وروْبة بن العجاج . والأخطل ، والفرزدق ، ونقائض جرير والفرزدق ، واسماء من ناقض جريراً وناقضه جرير ، واسماء ولد جرير من الشعراء وولد ولده ، واسماء القبائل التي دونها السكري ، كما اشار الى بعض اشعار الشعراء .

اما في الفن الثاني ، فقد ذكر فيه أشهر شعراء العرب في الاسلام ، والذين اشعروا بالعربية من اعاجم .

وتحدث ابن النديم في الجزء الخامس أي في المقالة الخامسة ، عن الكلام والمتكلمين . وقسم هذا الجزء الى خمسة فنون . تضمن الفن الأول ابتداء امر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة واسماء كتبهم . بينما عنى الفن الثاني باخبـــار متكلمي الشيعــة المختلفــة واسماء كتبهم . وتناول الفن الثالث اخبار متكلمي المجبرة والحشوية (٢) واسماء كتبهم ، والفن الرابــع اخبار متكلمي الخوارج واصنافهم ، واسماء كتبهم . امـــا الفن الخامس ، فقد روى فيه اخبار السياح والزهاد والعباد والمتصوفة والمتكلمين على الوسواس والخطرات واسماء كتبهم .

وخصص ابن النديم الجزء السادس أي المقالة السادسة ، للفقه والفقهاء والمحدثين . وقسمه الى ثمانية اقسام . ففي القسم الأول ، روى عن اخبار مالك واصحابه واسماء كتبهم . وفي الثاني تحدث عن اخبار ابي حنيفة النعمان واصحابه واسماء كتبهم . وفي القسم الثالث تناول اخبار الامام الشافعي واصحابه واسماء كتبهم . والقسم الرابع تضمن اخبار داود واصحابه ، واسماء كتبهم . وفي القسم الخامس تحدث عن اخبار فقهاء الشيعة واسماء كتبهم ، وفي القسم السادس روى اخبار فقهاء اصحاب الحديث والمحدثين واسماء كتبهم . وفي القسم السابع تحدث عن أخبار أبي جعفر الطبري واصحابه واسماء كتبهم . اما في القسم الثامن ، فقد شمل اخبار فقهاء الشراة واسماء كتبهم .

اما الجزء السابع ، أي المقالة السابعة ، فقد شمل الفلسفة والعلوم القديمة ، وكان معظمه من نصيب اليونانيين والرومان . فقد قسمه الى ثلاثة فنون. الفن الأول وقد تضمن اخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين واسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجودة منها وما ذكر ولم يوجد وما وجد ثم عدم . والفن الثاني تضمن اخبار اصحاب التعليم ، المهندسين والرياضيين والموسيقيين والحساب وصناع الآلات واصحاب الحيل والحركات. اما الفن الثالث فقد تحدث عن ابتداء الطب واخبار المتطببين من القدماء والمحدثين واسماء كتبهم ونقولها وتفاسيرها .

ويتحدث في هذا الجزء عن اقليدس فيقول : « ان اقليدس صاحب « جومطريا — Geometria » ومعناها الهندسة . وهو اقليدس ابن نوقطرس بن برنيقس ، المظهر للهندسة المبرز فيها ، اقدم من ارخميدس وغيره ، وهو من الفلاسفة الرياضيين » ، غير ان ابن النديم فاتته الاشارة الى ان اقليدس كان فينيقياً . ونسب اليه كونه رومياً ، وهذا يخالف الواقع ورواية الكتب اليونانية التاريخية القديمة .

وذكر ايضاً في هذا الباب ارخميدس ، وابسقلاوس ، وابولونيوس ، وهوميروس ، واطوقيوس ، ومناولاس ، وبطليموس ، واطولوقس ، ودورتيوش ، وثاون الاسكندراني وفاليس الرومي ، وتيودوروس وغيرهم . ثم عرج على المسلمين من عرب واعاجم .

اما الفن الثالث فقد حصر معظمه في الطب والاطباء ، واشار الى ابقراط وجالينوس وافلاطون ، ثم عرج على حنين وقسطا ، ويوحنا بن ماسويه ، وبختيشوع ، ومسيح الدمشقي ، وسابور بن سهل ، واسحن بن حنين ، والرازي ، وابو الحسن الحراني وغيرهم من الأطباء والعلماء .

اما الجزء الثامن ، أي المقالة الثامنة ، فهو الجزء الاكثر اثارة في الموسوعة ، فيتحدث ابن النديم في فنه الأول المكرّس لاخبار المسافرين والمخرفين عن اسماء الفرس واسماء الكتب التي الفها الفرس في السير والاسمار ، واسماء كتب الهند في الخرافات والاسمار والاحاديث، واسماء كتب الروم في الاسمار والتواريخ ، واسماء كتب ملوك بابل وغيرهم من ملوك الطوائف ، واسماء العشاق الذين عشقوا في عصري الجاهلية والاسلام ، واسماء العشاق من سائر الناس وغيرهم .

وتحدث ابن النديم في الجزء التاسع ، أي المقالة التاسعة ، عن المذاهب والاعتقادات . وقسم هذا الجزء الى قسمين . ففي القسم الأول تطرق الى وصف « مذاهب الحرانية الكلدانيين المعروفين في عصره بالصابئة ، ومذاهب الثنوية من المنانية والديصانية والحزمية والمرقيونية والمزدكية وغيرهم واسماء كتبهم . اما في القسم الثاني ، فقد وصف فيه المذاهب الغريبة الطريفة كمذاهب الهند والصين وغيرهم من اجناس الأمم .

ثم ختم ابن النديم فهرسه بالجزء العاشر الذي تضمن اخباراً عن الكيمائيين الصناع من الفلاسفة القدماء والمحدثين واسماء كتبهم .

خلاصة

لقد كانت جهود ابن النديم ضخمة بالفعل في اعداد فهرسه القيّم الذي أفاد منه الغرب قبل ان نفيد منه نحن والذي مضى عليه الآن نحو ألف عام . وقد بلغ عدد صفحاته خمسمائه صفحة من الحجم الكبير اشتملت على (٢٧٩) اسماً من اسماء الكتاب وما صنفوا من كتب ومؤلفات كما اشتملت ايضاً على ٣٢٤٥ اسماً من اسماء الكتاب والاعلام الذي جاء على ذكرهم في فهرسه ■

سليم واكيم — بيروت

(١) الاعلام للزركلي ج ٦ ص ٢٥٣ . (٢) يسمي ابن النديم أهل السنة بالحشوية لأنه كان معتزليا متشيعا ، كما يسمي الأشاعرة بالمجبرة .

القهوة..

عنوان الضيافة العربية

أنا المحبوبة السمرا ... وأُجلى في الفناجين
وعود الهند لي عطر ... وذكري شاع في الصين

تحتل القهوة مكاناً بارزاً في المجالس العربية التقليدية باعتبارها مفتاح القلوب. فحول النار المتوهجة التي تنضجها يتحلق الأصحاب ومع ارتشافها تتآلف النفوس وتستيقظ المشاعر وترق الأحاسيس. وعلى شذاها المتصاعد تطيب الأحاديث وتحلو الأسمار، فتنطلق الألسنة بأروع الحكايات وأعذب الألحان والأشعار. ولئن طغت الحضارة الحديثة على بعض مقومات المجالس العربية الأصيلة بما أقحمته عليها من أدوات، إلا أن القهوة لا تزال تتمتع بمركز مرموق كرمز للضيافة في المجتمعات العربية.



يتعذّر على المرء أن يتصور الشرق العربي بدون تلك الرائحة الذكية المنبعثة من حب القهوة وهو يحمص وبدون تلك الايقاعات الموسيقية العذبة الصادرة عن مدقة تحركها يد صناع وحسّ مرهف في أرجاء هاون نحاسي أو خشبي بغية سحن حبوب القهوة. تلك الرائحة العبقة وذلك الجرس الموسيقي الشجي هما دليل الحياة في سكون الصحراء. والقهوة، التي يقدح احتساؤها زناد الفكر، ويشحذ الادراك الحسي، ويزيد نفاذ البصيرة، ويضاعف القدرة على الفهم ليست قديمة عهد. فقد دخلت حياة شعوب الشرق الأوسط منذ قرون قليلة. أما الغرب فقد عرفها بعد أن احتك بالشرق في عصر الامبراطورية العثمانية. ومن ثم انتشر استعمالها في كل صقع حتى لقد غدت حاجة ضرورية قلما يخلو منها بيت. وهي في الشرق، حيث يعتمد جلّ أهله في كسب الرزق على أساليب بارعة تنم عن فطنة وذكاء بالغين، على حد تعبير الكاتب «بول لندي– Paul Lunde»، تعتبر مادّة أساسيّة لا تكتسب المعاملات الانسانية مفعولاً مالم تتخللها فناجين القهوة.

وتاريخ القهوة يكتنفه بعض الغموض، واول ذكر لها يرجع الى اوائل القرن السادس عشر. وتكاد تُجمع المصادر التاريخية على ان الفضل في اكتشافها، يعود الى العرب، حتى أن كلمة « قهوة » العربية مستعملة الآن في

جميع اللغات مع تعديل بسيط في لفظها . والقهوة في معاجم اللغة تعني اللبن المحض أو الرائحة . والفعل من لفظها « يُقهي » اي يُذهب بشهوة الطعام .

وقصة اكتشاف القهوة لا تخلو من طرافة لعبت فيها الصدفة دوراً عجيباً . فبينما كان أحد الرعاة العرب من اليمن ، ولعله « الشيخ الشاذلي » في بعض المصادر ، يسرّح قطيع ماعز في سفوح مرتفعات « كافيا » في بلاد الحبشة ، لاحظ أن أمعزه تطفر وتمرح وتثب بشكل لم يعهده فيها من قبل ، مما أثار فضوله . ولما اقترب منها رأى أنها تقتات ثمار شجرة لم يسبق له ان عرفها . فالتقط قليلاً منها وعلكها بين أسنانه فوجدها مرة المذاق ، فعمد الى غليها بالماء ثم جرع الشراب الناتج عنها ، فكان ذلك أول فنجان قهوة في التاريخ . ومع أن ذلك الشراب لم يكن مستساغاً ، الا انه أضفى على الشيخ صفاء الذهن ، وحدة التفكير ، ويقظة الحواس . فما كان منه الا أن أخذ بعض حبوب تلك الشجرة لدى عودته الى اليمن ، ونثرها في أرضها الخصبة فنجحت نجاحاً كبيراً ، ومن ثم انتشرت زراعتها في جبال اليمن وأقبل الناس على شرب القهوة بعد أن حالف الحظ التجارب التي أجراها أحد المتحمسين لذلك الشراب ، اذ هداه تفكيره الى تحميصها وسحنها ثم غليها بالماء ، وبذلك تم له شرابٌ سائغ لم يلبث ان تفشى بين الناس وسرى في أوساطهم سريان النار في الهشيم . ومع أن عامة الناس اتخذوا من شراب القهوة دواء مسهلاً في بادىء الأمر ، الا انه لقي معارضة شديدة من المتزمتين . فكثر الجدل حوله واختلف البعض في تصنيفه بين قائمة المشروبات المباحة أو المحظورة . وتشير المصادر التاريخية الى أن مكة المكرمة كانت مسرح أول مؤتمر يعقد لمناقشة قضية فريدة من نوعها ، موضوعها القهوة التي أثار شربها بلبلة كبيرة ، فانقسم الناس في أمرها بين مؤيد ومعارض . ولعل السبب المباشر الذي أوجب عقد مثل ذلك المؤتمر هو انتشار المقاهي في أحياء مكة المكرمة وتزايد عدد روّادها وسهرهم الى ساعة متأخرة من الليل ، الأمر الذي كان يسبب ازعاجاً كبيراً ليس للمصلين في المسجد الحرام فحسب ، بل لأهل مكة عامة . وقد تفاقم أمر تلك المقاهي لدرجة حدت بأحد ولاة مكة المكرمة من المماليك عام ١٥١١ م الى الدعوة الى مؤتمر



رسم تخيله الفنان للشيخ الشاذلي وهو يطارد ماعزه التي ترقص جذلى بعد أن أكلت من شجرة البن .

يبحث المشكلة من أساسها لأنه لم يعد في الامكان تجاهل آثارها . ويروى أن ذلك الوالي ، واسمه « خير بيك » في بعض المصادر التاريخية ، كان عائداً من الحرم الى قصره بعد صلاة العشاء ليلة الجمعة . وكان من عادته ان يعود الى القصر ماشياً لينعم بالجو الرائع الذي تضفيه على مكة المكرمة سماء صافية الأديم ونجوم متلألئة ، ومصابيح خافتة الأنوار معلقة في الشوارع ، وسكون شامل يلف أحياء مكة وطرقاتها . في تلك الليلة تلكأ « خير بيك » في سيره مأخوذاً بقدسية المكان وهيبته الدينية ، وخطر له ان يمر بقائد الحرس مروراً عابراً ليلقي إليه ببعض التعليمات . وأثناء سيره طرقت أسماعه قهقهات عالية بددت السكون وعكّرت صفو المكان . فلما نظر باتجاه مصدر تلك القهقهات تراءت له أشباح جماعة مؤلفة من نحو خمسة عشر رجلاً تحلقوا حول كانون متوهج . فسارع الخطو يتبعه حرسه ليرى من بلغت به الجرأة لتعكير ذلك السكون الشامل ، ولما دنا منهم رآهم يمررون عليهم فنجاناً يملأونه من ابريق موضوع فوق نار الكانون . وكم كانت دهشته كبيرة عندما رأى ضابط الحامية الرقيب « قُرقماز » ينزع ذلك الفنجان الصغير من الابريق ويدور به على أفراد فرقته . فبادره بقوله والشرر يتطاير من عينيه : ما هذا الذي تشربه ايها الرقيب ؟ فوقف الضابط منتصباً

وقال : سيدي ، انها القهوة ولا ضرر منها مطلقاً . فانفجر « خير بيك » صائحاً : أهذا يجعلك تنسى أبسط قواعد الآداب والسلوك وقد أصبحت ضابط صف ؟ والأنكى من ذلك انك تباشر بها بنفسك على جنودك وهم يقهقهون على مشهد من الكعبة المشرفة ! وهنا استدار « خير بيك » الى حارسه وأمره أن يسير بأفراد الفرقة الى الثكنة ويجلد كلاً منهم خمسين جلدة . أما « قرقماز » فقد حكم عليه بالفلقة والسجن . ثم امر أحد جنوده ان يستدعي علماء المذاهب الاسلامية الأربعة في مكة المكرمة الى قصر الحاكم صبيحة اليوم التالي . ولما حضروا طلب منهم أن يشكلوا لجنة خاصة لدراسة موضوع القهوة واصدار فتوى بذلك تتخذ الحكومة حياله الاجراءات القانونية المناسبة . وفي اليوم التالي تألفت اللجنة من ١٥ رجلاً من القضاة البارزين والمفسرين ورجال القانون ، منهم عدد من القضاة المصريين والسوريين الذين اتفق وجودهم في مكة المكرمة آنذاك . وما أن التأم شملهم حتى دخل القاعة « خير بيك » يتبعه خادم يحمل صينية عليها ابريق وفنجان ، وضعها على منضدة ولما اختفى الخادم ، ران على المجلس صمت مطبق قطعه « خير بيك » قائلاً : هذه ، مشيراً بيده الى الصينية ، هي القهوة ، وأطلب منكم أن تقرروا فيما اذا كانت ممنوعة أو مباحة من الناحية الشرعية . ولم يلبث أن غادر المكان

ليتيح للجنة بحث الأمر واصدار قرار بذلك . كان اول ما ناقشه أعضاء اللجنة العواقب السيئة التي تنجم عن شرب القهوة في الأمكنة العامة وما يصحب ذلك من مظاهر اللهو ، مما يعتبر سلوكاً لا اخلاقياً ، وقد شجبت اللجنة بالاجماع ذلك السلوك باعتباره أمراً لا يتفق ومبادىء الشريعة الاسلامية . وعندما انتقل اعضاء اللجنة الى موضوع شرب القهوة احتدم النقاش وظهر الانقسام جلياً بينهم . فالمفسرون المتزمتون رأوا تحريم شرب القهوة على ذلك المنوال . أما المتسامحون والمتساهلون في التزام السنن ، وكانوا الأغلبية في اللجنة ، فلم يروا في شربها ما يتعارض مع ما حرمه الله ، خاصة اذا روعي في شربها الاحتشام والأدب ، ودعموا حججهم بأن القهوة لا تذهب بعقل شاربها . وانفض المجلس دون التوصل الى قرار قاطع . ولما علم « خيربيك » ان اللجنة وصلت الى طريق مسدود استدعى أطباء مكة البارزين ليدلوا بآرائهم فيما يتعلق بخواص القهوة وآثارها الطبية على الجسم . غير ان الأطباء زادوا الأمر تعقيداً ، حين قرر الغالبية أنها سيئة ، أما الأقلية فأعلنوا انه لا ضرر منها . ولم يسع « خيربيك » ازاء تلك التقارير المتناقضة ، الا أن أصدر باغلاق جميع المقاهي في مكة المكرمة وايداع اصحابها في السجن كما صادر القهوة في المحلات التجارية وأحرقها ، ومنع المتاجرة بها . ولما دالت دولة المماليك ، وتسلم العثمانيون مقاليد الأمور ، تجاهلوا قرارات « خيربيك » بشأن القهوة .

ولم تمض بضع سنوات حتى أقبل الناس من جديد على شربها وخاصة في الشام ومصر وأخذت المقاهي تنتشر في دمشق وحلب والقاهرة . ثم انتقلت بعد ذلك الى استانبول عاصمة السلاطين العثمانيين عندما قام أحد أبناء مدينة حلب عام ١٥٥٤ م بافتتاح أول مقهى فيها أثناء حكم السلطان « سليمان القانوني » . وقد لاقى ذلك المقهى أرضاً خصبة في استانبول انتشرت على أثره المقاهي فيها وأخذ يرتادها المثقفون من شعراء وكتاب وأدباء ، حتى لقد أطلق عليها « مكاتب العرفان » . وازداد الاقبال على ارتياد المقاهي لدرجة ازعجت الحكومة العثمانية ، فكان أن فرضت على القهوة ضرائب فادحة باعتبارها سلعة كمالية ، وبذلك ضمنت دخلاً للدولة .

أما الغرب فلم يعرف القهوة الا في اواخر القرن السابع عشر على يد رجل يدعى « فرانزا



الهـاون

جورج كولشتزكي » . ففي عام ١٦٨٣ م حاصر الجيش العثماني مدينة « فيينا » وقطع عنها المؤن والامدادات ، حتى انتشرت فيها مجاعة مريرة ، وتفشى بين أهلها مرض « الدوسنطاريا » ، مما أوهن مقاومتها وكادت تعلن التسليم . وفي هذه اللحظات الحرجة تطوع « كولشتزكي » ، وهو من أصل بولندي عاش أعواماً عديدة بين الأتراك وعمل كترجمان لهم ، تطوع لحمل رسالة خاصة الى « دوق اللورين » زعيم جيش الحلفاء بغية الاسراع في انقاذ المدينة . وانسل « كولشتزكي » بين خطوط الجيش العثماني متخفياً في زي تركي ، وبينما هو يتجول في المعسكر التركي والمطر ينهمر ، أحس به ضابط عثماني فاستدعاه الى خيمته واستجوبه ، ولما لم يكتشف لديه ما يريبه أخلى سبيله بعد أن قدم اليه فنجان قهوة . وقام « كولشتزكي » بايصال الرسالة الى الدوق ، وعاد من حيث أتى يحمل الى المدينة المنكوبة ما يبعث على الأمل . واعترافاً بالجميل نفحه سكان المدينة مبلغاً من المال ومنحوه حق المواطنة وامتيازاً خاصاً بممارسة الأعمال التجارية في المدينة . وجاء جيش الحلفاء ، وتمكن من فك الحصار عن المدينة ودحر الجيش العثماني . وكان من الغنائم التي غنمها جيش الحلفاء ٥٠٠ كيس مملوءة بحبوب غريبة تنبعث منها رائحة ذكية لم يسبق لأحد أن رآها . وثار الجدل حول ماهيتها وماذا يفعلون بها ، حتى انهم قرروا اخيراً طرحها في نهر الدانوب . وهنا ظهر فجأة « كولشتزكي » ، وهاله ما اقدم على فعله مواطنوه ، فطلب منهم أن يأخذ تلك الأكياس ، فقدموها له عن طيب خاطر . وسرعان ما افتتح « كولشتزكي » اول مقهى في اوروبا . ومع ان زبائنه ابدوا شيئاً من التأفف لدى شربها على الطريقة التركية الثقيلة ، الا انه استطاع بعد تجارب مختلفة تحضير قهوة مستساغة ذات نكهة طيبة بعد تخفيف حدتها بقطرات من اللبن يضيفها اليها وتقديمها في فناجين كبيرة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلب من خباز ان يصنع له اقراصاً صغيرة محلاة يقدمها مع فنجان القهوة ، وهي العادة التي ما زالت جارية في بعض الأوساط الغربية والشرقية ، ولا سيما في الصباح . وبذلك استعاد « كولشتزكي » زبائنه وازدحم مقهاه بالوافدين الذين استمرأوا شربها على ذلك النحو . ومن ثم اخذت المقاهي تنتشر في البلدان الأوروبية. وقد لقي شرب القهوة في الغرب ما لاقاه شربها في الشرق من معارضة في بادىء الأمر ، لم تلبث ان اخذت تذوب شيئاً فشيئاً مع اقبال الناس

كانت مجالس القهوة العربية ولا زالت منتدى يعبر عن تآلف القلوب وتبادل الأحاديث الودية.



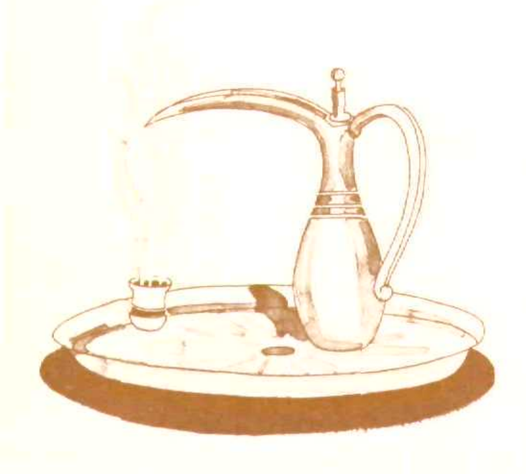


كانت المقاهي شبه منتديات عامة يجتمع فيها الناس ويرتشفون القهوة ذات النكهة الطيبة .

عليها . ومن اطرف ما يروى عن القهوة في اوروبا في سبيل صرف الناس عن شربها تلك الدعاية الألمانية التي روجها البعض من ان القهوة تورث العقم لدى النساء . فثارث ثائرة النساء على تلك الدعاية المغرضة ، وانبرى الموسيقار « باخ » ، على اثر ذلك فألف مقطوعة موسيقية تحكي قصة القهوة على نحو يحببها للجميع واطلق عليها اغنية القهوة « Coffee Cantata » ، فأحدثت صدى عميقاً في المجتمعات الاوروبية . وفي مرسيليا ، في فرنسا ، اعلن احد الأطباء البارزين ان الرجل اذا افرط في شرب القهوة فان ذلك يعوقة عن الوفاء بالتزاماته الزوجية ، فكان ان اغلقت مقاهي مرسيليا ابوابها .

اما القارة الامريكية فقد عرفت القهوة في اواخر القرن السابع عشر وراحت تنتشر فيها المقاهي بشكل واسع في الثلث الأول من القرن الثامن عشر ولا سيما في المدن الكبيرة مثل نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا . وتشير بعض المصادر التاريخية ان « مقهى التجار » الذي اقيم في نيويورك عام ١٧٣٧ م كان ملتقى الطبقة المثقفة ورجال القانون ، وفيه ولدت فكرة انشاء « الاتحاد الأمريكي » . وتزعم بعض المصادر ان الكابتن « جون سميث » موسس « فيرجينيا » كان اول رجل حمل بعض المعلومات عن القهوة الى امريكا ، وكان ذلك في سنة ١٦٠٧ م . ويعتقد ان المهاجرين الهولنديين حملوا معهم القهوة الى نيويورك واطلقوا عليها اسم « امستردام الجديدة » . ومن القصص الطريفة التي تروى حول نقل شجرة البن الى العالم الجديد تلك المغامرة الفذة التي قام بها ضابط فرنسي شاب في البحرية يدعى « غابرييل ماثيو دي كليو » ، وكان قد عين قائداً للمشاة في جزر «المارتينيك» . لقد بلغ اسماع « دي كليو » النجاح الباهر الذي حققه الهولنديون في نقلهم شجرة البن من جنوب الجزيرة العربية الى جزر الهند الشرقية ، فصمم على ان يحذو حذوهم في نقل تلك الشجرة الى جزر المارتينيك شجعه على ذلك تشابه الخصائص المناخية بين المنطقتين . وحدث ان قام عام ١٧٢٠ م بزيارة الى باريس في عهد لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، وكان قد علم من مصدر خاص ان لدى الملك بضع شجيرات بن نادرة امر بغرسها في بيت خاص في حديقة قصيرة . فتقدم من طبيب الملك الخاص ، يدفعه حماس وطني مضطرم ورغبة جامحة ، وطلب منه ان يتوسط لدى الملك لمنحه احدى تلك الشجيرات الثمينة . واجيب الى طلبه وحملها معه في مغامرة طويلة دامت نحو شهرين عبر المحيط الأطلسي متحدياً حملات القراصنة والعواصف البحرية الهوجاء وتناقص كمية الماء في السفينة لدرجة حدت بقائد السفينة الى تقنين الماء ، الأمر الذي جعله يشرك الشجيرة الأثيرة لنفسه بالنزر اليسير من الماء الذي كان يحصل عليه اثناء الرحلة الشاقة . وما ان وطئت قدماه ارض « المارتينيك » حتى غرس الشجيرة وتعهدها بعناية فائقة فنمت وترعرعت وازهرت وحملت الحبوب الزمردية التي يقال انها كانت اصل جميع اشجار البن في العالم الجديد ، وبلغت اشجار البن في «المارتينيك» مع اطلالة عام ١٧٧٧ م نحو ١٩ مليون شجرة .

وفي المملكة العربية السعودية خاصة والجزيرة العربية عامة تحتل القهوة مكانة رفيعة باعتبارها عنوان الكرم والضيافة العربية ، فأنى حللت تجد مضيفاً طلق المحيا يسارع الى تقديم القهوة اليك بين عبارات الترحيب الحار والاستقبال النادر . في البادية يحرص البدوي على اقتناء القهوة ودلالها الصفراء اللامعة وأدواتها الملازمة لها . كالمحماس والمنفاخ والنجر « الهاون » « والمهباش » يد « الهاون » ، اضف الى ذلك جمر شجر الأرطى او الغضا او السمر الذي يتأجج في الوجار (١) ، والعربي في بوادي المملكة في سبيل اكرام ضيفه ، يقطع الفيافي والقفار ويتحمل المشاق والعنت ليبتاع البن في المدينة ، ويحافظ عليه حفاظه على اعز الأشياء لديه ، كل ذلك ليقري ضيفه اذا ما داهمه في مجاهل الصحراء . اما الحضري في المملكة قبل ان تطغى الحضارة الحديثة بوسائلها المستحدثة على مراسيم القهوة وادواتها التقليدية ، فانه يخصص في منزله حجرة خاصة يطلق عليها « القهوة » ، وهي المجلس الذي يستقبل فيه ضيوفه . ويبالغ الرجل في ان تبدو « قهوته » في ابهى حلة واجمل منظر . فالبسط الفاخرة والزرابي المزركشة تغطي ارضها ، والارائك ذات المرايا الصغيرة تنتشر في جنباتها ، والكمرة قد صفت على رفوفها الدلال الصفر اللامعة واباريق الشاي من كل حجم وشكل ، و « البيبتات » غصت بالبن والشاي والهيل والزعفران والمسمار والعود والند . وخير من تناول موضوع القهوة من جميع اطرافه الاديب السعودي اللامع



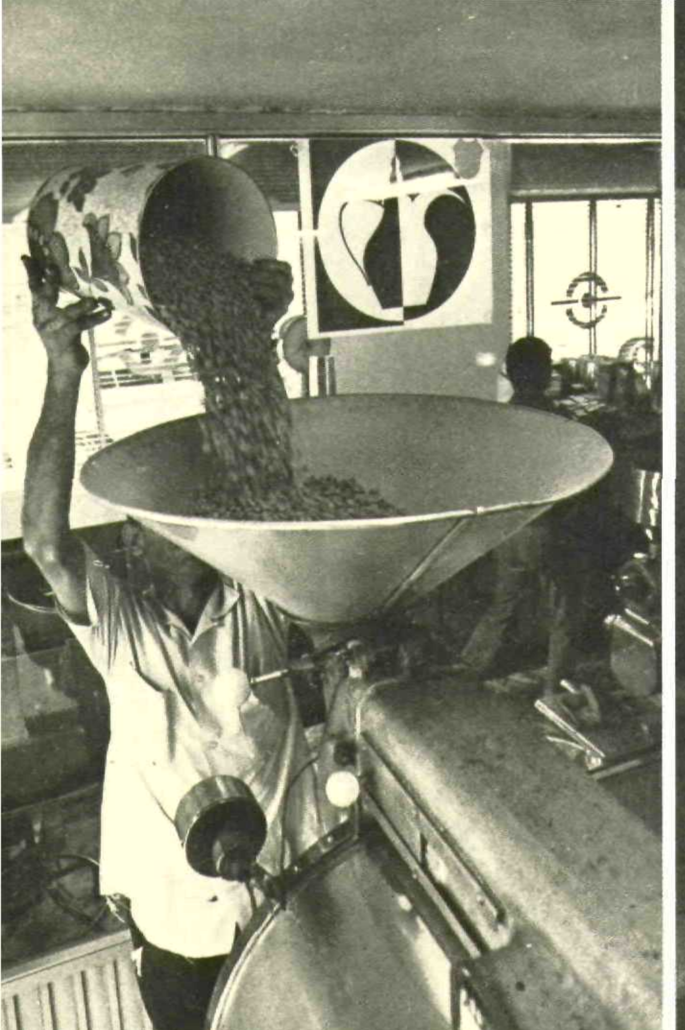
الدلـة والفنجان

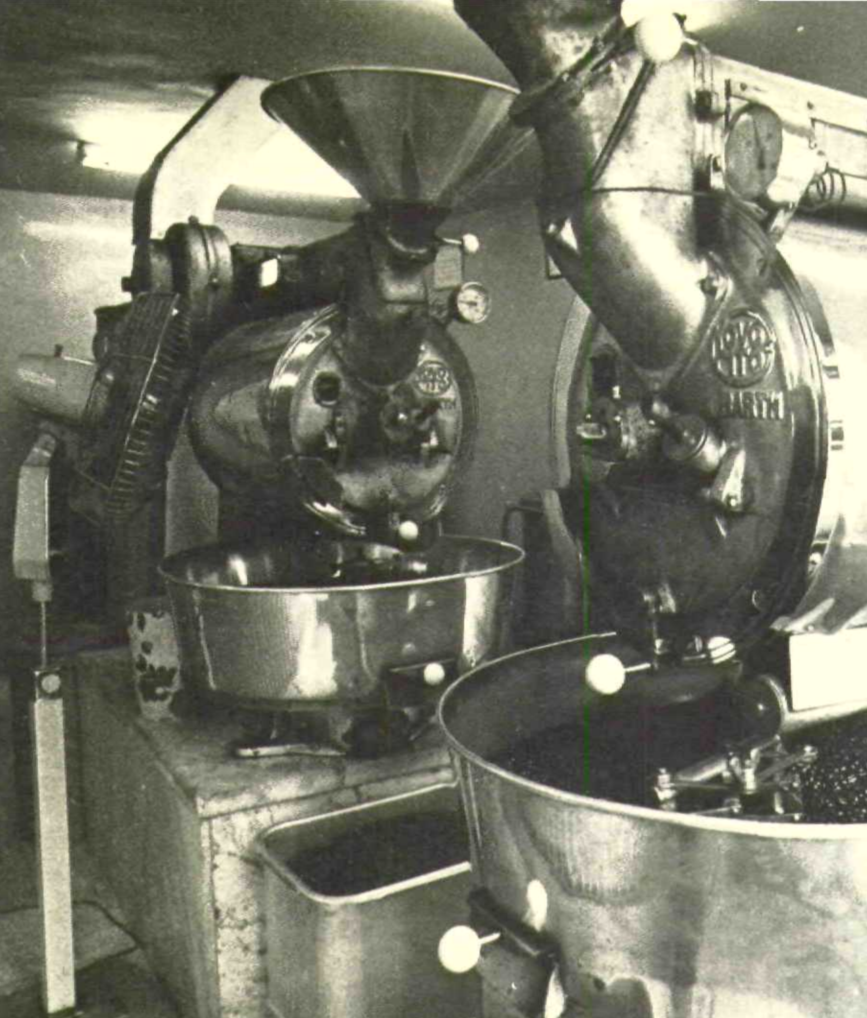
أحد ابناء البادية يعد القهوة العربية قبيل وصول ضيوفه وقد ظهرت أمامه أدوات اعداد القهوة .

الاستاذ عبد العزيز بن محمد الأحيدب من ابناء بلدة « جلاجل » في منطقة سدير في كتابه « تحفة العقلاء في القهوة والثقلاء » فقد اوفى الموضوع حقه واورد كثيراً من الأشعار العذبه التي قيلت في القهوة . فعن مكانة الوجار في النفوس يقول : « الوجار مرآة تعكس النبل والشهامة في الرجل ، فانك لا تأتي لتشرب القهوة فحسب بل ولتحضر عملها ، فما ان ترن تحيتك في المكان حتى تسمع : شب يا ولد ، فيستدرك الزائر قائلاً : نكتفي بالبارزة ، فيقاطعه المضيف موجهاً الكلام للولد : لا بأس صب وشب» . ولنسمع ما يقوله الاستاذ الأحيدب عن كيفية صنع القهوة العربية : « اما طريقة صنع القهوة العربية فتتلخص في غلي الماء مع البن المسحوق مضافاً اليه كميات كبيرة من حب الهال المجروش ، ثم يجري تخميره وتحضيره على طريقة خاصة . وعرب الجزيرة



تقدم الأقراص المحلاة مع القهوة الافرنجية تبعا للاسلوب الحديث في شربها .





تحميص البن وطحنه بالآلة طريقة مستحدثة شقت طريقها الى البلاد العربية وهذه بعض الآلات الحديثة المنتشرة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

العربية يفاخرون الامم الأخرى بنكهة وعذوبة قهوتهم لخلوها من حلاوة السكر او اية تحلية اخرى» . ثم يستطرد الاستاذ الاحيدب ليحدثنا عن طريقة تقديم القهوة العربية فيقول : «ولتقديم القهوة العربية ولشربها عادات وتقاليد محترمه ، لا يجوز لأحد ان يتجاوزها ، فهي اول ما يقدم للضيف ، ترحيباً وتكريماً اذ يتقدم الساقي ، حاملاً دلته الصفراء الزاهية بيده اليسرى قابضاً بيده اليمنى على عدد من فناجين القهوة العربية المميزة ، فيصب للضيف او للضيوف ، رشفة صغيرة ، يحول كبر الفنجان فيها ، دون تأثر اصابع الضيف بسخونة الشراب . فاذا ارتشفها الضيف ، صب له الساقي رشفة اخرى ، ويظل يتابع الصب له ، حتى يهز الضيف فنجانه هزة صغيرة ، يتوقف بعدها الساقي عن الصب . . والا فيظل يصب» .

والقهوة العربية في البوادي تزداد عذوبة على نغمات الأشعار ووسوسة الجمر ، فهذا الامير احمد بن عبدالله السديري يقول :

الصو شبت مشعلوها بليفه
الا هشيم من شجر شعة طاح
ثم قربوا بيض الدلال الزريفه
نقا لهن ما هوب عنهن بنحاح
ال عاهن بالسنين الكليفه
بجعل بهن هيل مع البن فواح
لا فاح ريحه ما عرفنا وصيفه
المسك يقرب له بعجات الأرباح

ويقول ايضاً :

هجن سفايفهن على الحد طفاح
ينسف عليهن من حسين الخروجي
واحلو فنجال الضحى عقب مصباح
الهيل به وزعفرانه يبوحي
والنجر من بين المعاميل صياح
ودلال بيض ما دخلها المروجي
والقرص يفرك فوقه السمن مناح
من مزهب راعيه ما هو حنوجي

وزراعة شجرة البن ، مع ما حققه شرب القهوة من نجاح وما لقيه من استحسان ، اخذت تتطور بسرعة هائلة فانتقلت زراعته من اليمن الى بلدان اخرى كثيرة اهمها البرازيل، وجمايكا ، وكوبا ، وفنزويلا ، والمكسيك ، وكولومبيا ، وغيرها . والقهوة في هذه البلدان تشكل جزءاً كبيراً من دخلها الوطني . وليس ذلك فحسب بل ان القهوة اوجدت العمل للملايين من البشر ، سيما وان مؤسسات صناعية كبيرة تعتمد اليوم على هذه السلعة التجارية الرائجة في تأمين أرباح هائلة عبر تزويد الأسواق الاستهلاكية بأصناف عديدة من القهوة تعدها أيد خبيرة ■

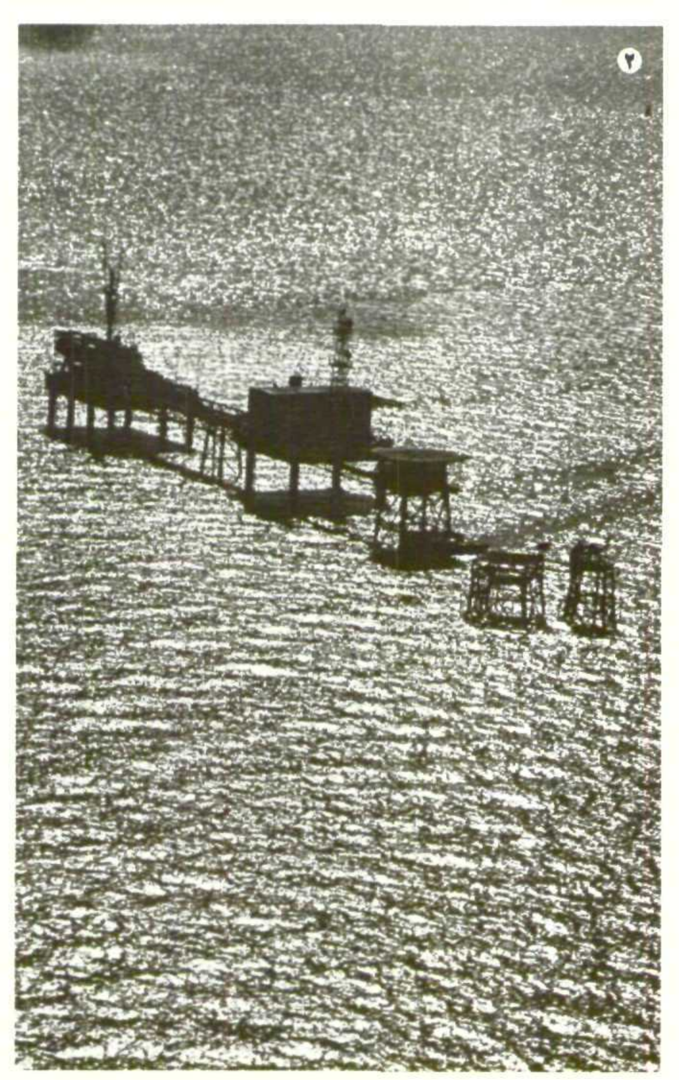
سليمان نصرالله — هيئة التحرير

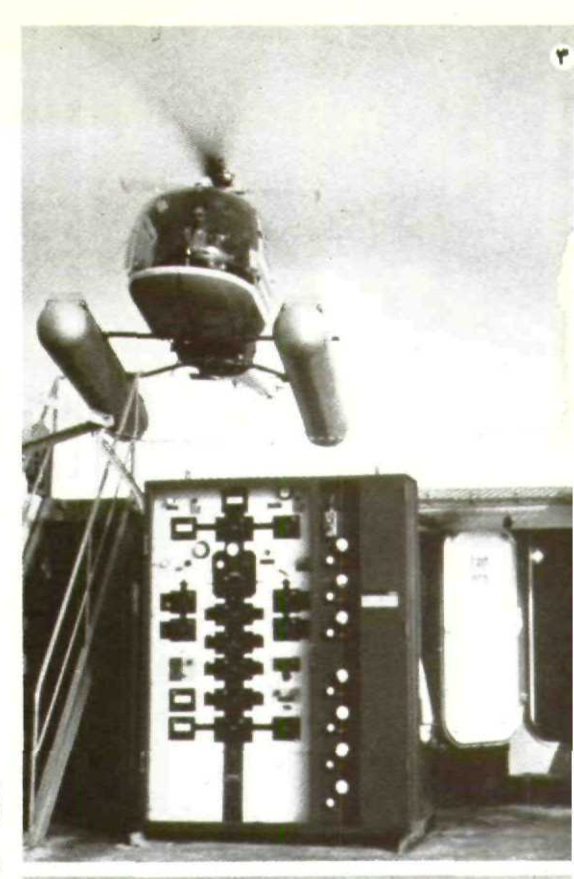
الرسوم بريشة الفنان (إد . ديفز)

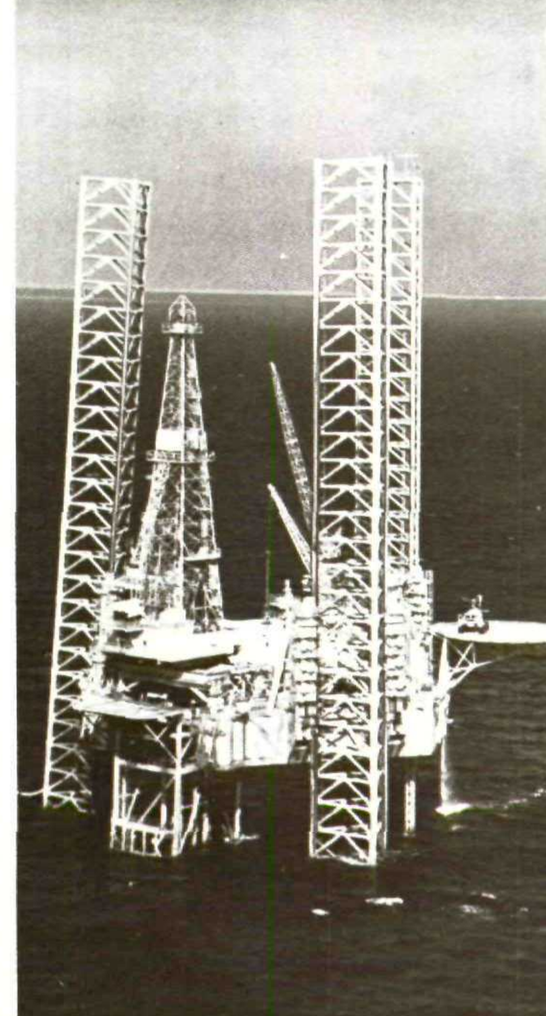
البحث عن الزيت في المناطق المغمورة..

على مرّ العصور وتعاقب الحضارات ظلّت دوافع سبر المجهول لدى الإنسان تراوده. فذرع البحار وركب أهوالها باحثًا عن خيراتها المكنوزة الوفيرة ومنقّبًا عن مواردها الخفيّة الغزيرة .. وسيبقى الإنسان هكذا دؤوبًا في سعيه وكدّه، نشيطًا في بحثه وتنقيبه ما واتته فكرة أو هداه تفكير.









١ – الناقلات العملاقة تؤم الجزيرة الاصطناعية برأس تنورة لشحنها بالزيت السعودي الى الأسواق العالمية .

٢ – معمل لفرز الغاز من الزيت في حقل الظلوف الذي يقع على بعد ٦٤ كيلومترا عن الساحل في مياه عمقها ٣٢ مترا .

٣ – أحد أجهزة المراقبة الدقيقة التي تتحكم في الانتاج لدى حدوث أي خلل طارىء فتغلق البئر في الحال ويبدو خلف الجهاز مهبط لطائرة عمودية .

٤ – تستطيع منصة الحفر البحرية «أرامكو– ٢» العاملة في مياه الخليج العربي ان تحفر في مياه يصل عمقها الى ٢٥٠ قدما .

أخذ الانسان ، منذ اواخر القرن الماضي في البحث عن ثروات البحار الطبيعية وأولها الزيت ، الذي يعتبر اهم مصدر للطاقة في عصرنا الحاضر ، وكذلك الغاز الطبيعي الذي غالباً ما يوجد مع الزيت .

ففي عام ١٨٩٤ بدأت اولى عمليات الحفر في المناطق المغمورة بحثاً عن الزيت ، وكان ذلك على مقربة من الفرض البحرية او ضمن الشواطىء ذات المياه الضحلة . والزيت ، كما تقول احدى النظريات ، تكوّن من اطنان لا حصر لها من النباتات والحيوانات النافقة التي جرفتها السيول والأنهار منذ بدء الحياة المائية قبل ملايين السنين ، وترسبت في قاع المحيطات . وبتأثير الحرارة والضغط العاليين ، تفاعلت هذه المواد وتحولت الى سائل او غاز يملأ مسامات الصخور الرسوبية وغدا شكل هذا السائل يتفاوت بين كونه ثقيلاً داكن اللون او خفيفاً فاتح اللون .

وحتى عام ١٩٤٧ لم تتجاوز عمليات حفر الآبار السواحل القريبة الضحلة ، غير انه في اواخر ذلك العام بدىء بالحفر في مناطق بحرية تبعد حوالي (١٧) كيلومتراً عن الشاطىء في خليج المكسيك . ومع ان الحفر هناك كان يجري في مياه لا يتجاوز عمقها ١٨ قدماً الا ان عمليات حفر استكشافية كانت تجري في مياه يتجاوز عمقها ٩٠٠ قدم .

وللوصول الى الزيت في تلك الأعماق كان على رجال الحفر ان يجروا تعديلات وتحسينات على معداتهم الاستكشافية والانتاجية التي يستخدمونها في اعمالهم وتحرياتهم عن الزيت على اليابسة .

واليوم اخذت عمليات الاستكشاف في المناطق المغمورة تضارع تلك التي تتم على اليابسة. وصار رجال التنقيب يستخدمون طائرات خاصة للقيام باعمال الاستكشاف الأولية فوق المناطق المغمورة مزودين بجهاز يدعى « جهاز قياس المغناطيسية – Magnetometer » لفحص الخواص الطبيعية للصخور تحت قاع المحيط . وكانوا عندما يتبين لهم احتمال وجود الزيت في منطقة ما يرسلون مركباً بحرياً مزوداً بجهاز قياس الاهتزازات «السيزموغراف – Seismograph » بغية اجراء المزيد من البحث والاستقصاء . ولدى قياس الموجات الصوتية المرتدة عن الطبقات الصخرية الصلبة الكامنة تحت قاع البحر الى السطح ، تحدد اجهزة السيزموغراف المواقع او الحقول التي يحتمل وجود الزيت فيها .

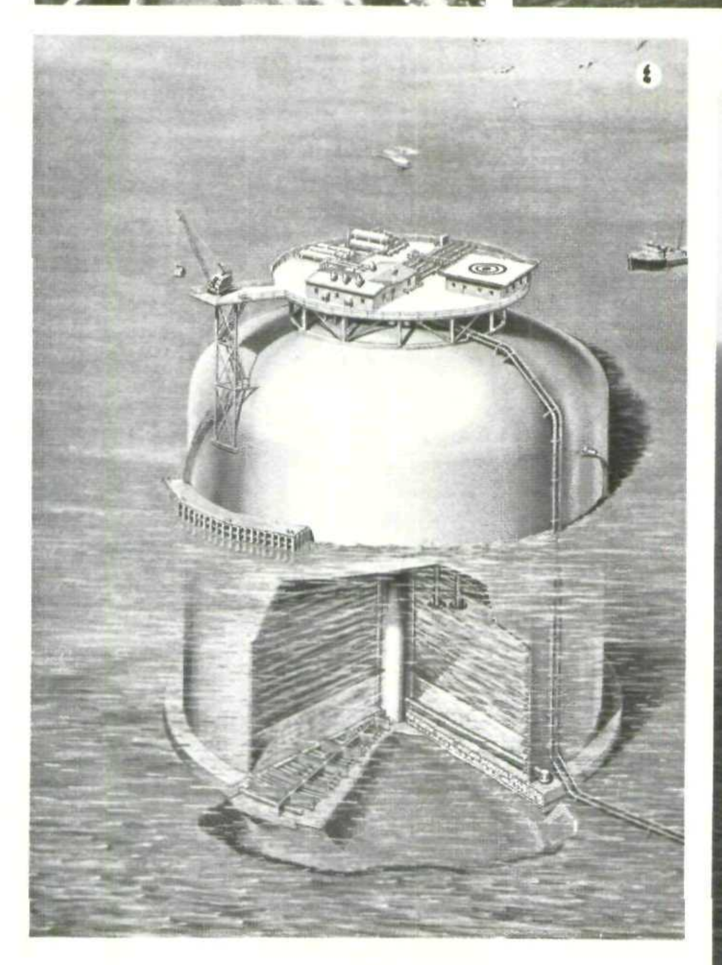
كانت الموجات الصوتية المرتدة عن الصخور الصلبة تتم في السابق بواسطة شحنات من المتفجرات اما اليوم فتحدث هذه الموجات بواسطة اجهزة خاصة كالذي صممته شركة « اسو » لابحاث الانتاج وهي شركة متفرعة عن شركة « اكسون » ، احدى الشركات المشاركة في ملكية ارامكو . وهذا الجهاز ، الذي لا يضر بالحياة البحرية، يفجر شحنة صغيرة من الغاز داخل اسطوانة ثقيلة من المطاط فتنشق في الحال محدثة بذلك موجات صوتية دقيقة تلتقط اصداءها اجهزة السيزموغراف الموجودة في المركب .

١ – خزان دبي رقم – ١ – أثناء سحبه الى مكانه المعين في قاع الخليج العربي حيث تم تثبيته كخزان مغمور للزيت الخام يستوعب حوالي نصف مليون برميل .

٢ – يستخدم رجال التنقيب في المناطق المغمورة اسطوانة من المطاط المقوى تحتوي على غاز ، وذلك لاحداث موجات صدمية يسجل صداها بالأجهزة المعدة لذلك في سفن التنقيب البحري . وهذا النوع من الاسطوانات لا يؤذي الكائنات البحرية .

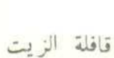






٣ – الناقلة «ديفز» التي تستخدمها أرامكو كخزان عائم للزيت الخام في مياه الخليج العربي وتبلغ سعتها ١٨٠٠٠٠٠ برميل .

٤ – أحد خزانات الزيت الحديثة في قاع البحر وتبدو على سطحه مجموعة من الأجهزة الخاصة بالانتاج .



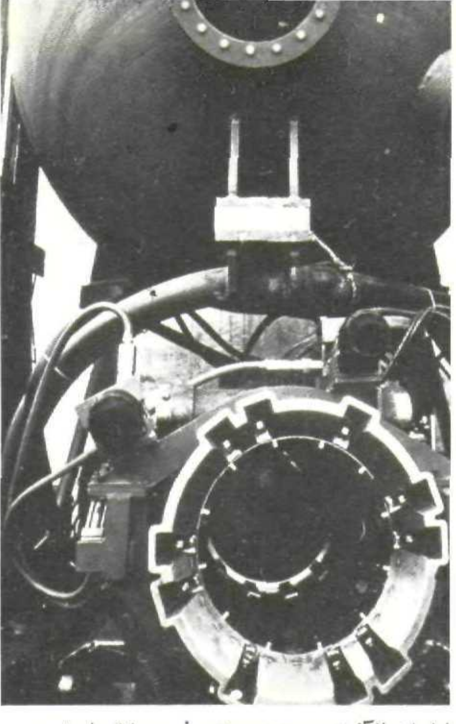
وفي بعض الأحيان ينشد الجيولوجيون ، العاملون على مراكب التنقيب ، معلومات تكميلية لاحدى المناطق التي تبشر باحتمال وجود الزيت فيها ، وذلك بالحفر في الطبقات العليا من الصخور الرسوبية . وغالباً ما يكشف تحليل تلك المعلومات ما اذا كانت هناك احوال وظروف ملائمة لوجود مواد هيدروكربونية بكميات تجارية على عمق آلاف من الأقدام . ومع ذلك ، وبعد القيام بكل هذه الخطوات تظل البئر الاستكشافية هي الطريقة الوحيدة للتأكد من وجود الزيت بكميات تجارية .

وفي العادة ، تكون منصات الحفر البحريـة التي تحمل الأبراج متنقلة حيث ان بعض الآبار الاستكشافية ، او اكثرها في بعض المناطق ، تكون جافة او لا قيمة تجارية تذكر لما يكتشف فيها من الزيت او الغاز .

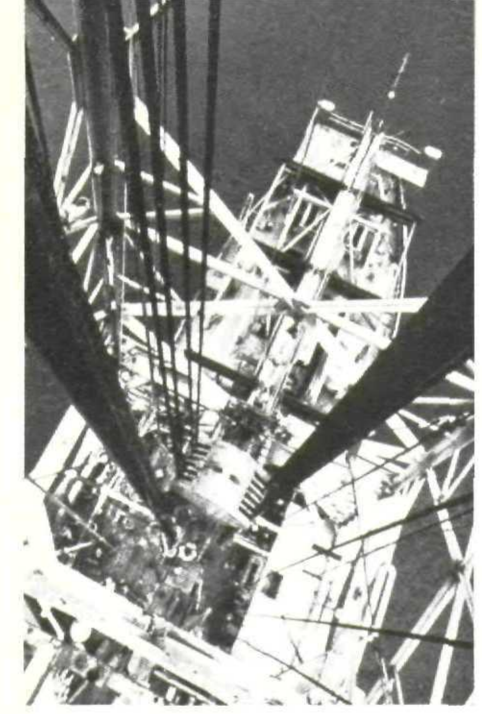
ويتوقف نوع منصة الحفر البحرية المتنقلة على عمق المياه التي ستستخدم فيها . وهناك منصات للحفر مصممة خصيصاً للعمل في مناطق مغمورة يبلغ عمق الماء فيها حوالي ٣٠٠ قدم او اقل . وفي هذه الحالة تجر المنصة ، حاملة البرج ، الى مكان البئر المرغوب في حفرها فتُنزل قوائمها ، او دعائمها التي تقوم عليها ثم تثبت بقوة في قاع البحر وبعد تثبيتها ترفع المنصة بحيث ترتفع عن مستوى الأمواج . ولدى اتمام الحفر تسحب منصة الحفر بكامل اجزائها الى مكان آخر لتواصل عملها بحثاً عن الزيت او الغاز .

ومنذ عام ١٩٥٠ اخذت منصات وابراج الحفر المستعملة في المناطق المغمورة تتطور وتزداد نظراً لازدياد الطلب على الزيت . وتشير الاحصاءات الى ان سدس حاجة العالم من الزيت يرد اليوم من المناطق المغمورة ، ومع نهاية العقد الحالي يصبح بامكان العالم الحصول على ثلث حاجته من الزيت من مناطق بحرية . فبعد استكشاف وتطوير المناطق القليلة الغور سيتجه رجال الزيت الى مناطق اعمق وابعد عن الشواطيء الضحلة القريبة . وبالفعل اخذ رجال التنقيب في البحر يستعملون منصات عائمة لحفر آبار الزيت . كما امكن تطوير مراكب للحفر البحري لا تتأثر بالأحوال الجوية والبحرية في المناطق المراد التنقيب فيها .

ومن ابراج الحفر نوع شبه غائص وهو اثبت من غيره لأن تركيبه الشبكي اقل تعرضاً للأمواج عند ارتفاعها . وعند سحب هذا البرج



الجهاز الآلي «روبوت» يستخدم في صيانة واصلاح نموذج شبكة الانتاج المغمورة .



منظر لاحدى سفن الحفر العاملة في المناطق المغمورة .

بمنصته التي تعادل مساحتها مساحة ملعب لكرة القدم ، وتثبيتها في مكان الحفر ، تُنزل الخزانات العائمة والأعمدة التي تقوم عليها المنصة في ماء البحر حتى تغوص الى قدر كاف لتثبيت البرج . وبهذا تصبح وحدة الحفر كلها ثابتة متزنة في معظم الأحوال الجوية والبحرية . وزيادة في الحيطة ، تثبت الأبراج بثمانية او عشرة حبال معدنية قوية ، كل منها مربوط بمرساة في قاع البحر تزن حوالي اربعـة عشر طناً .

وقد ابتكر خبراء الحفر في المناطق المغمورة اسلوباً آخر لتثبيت منصات الحفر ينتظر ان يكون له دور رئيسي في الحفر في المياه العميقة . ويقضي هذا الأسلوب باستخدام عدد من الرفاصات ، تحت هيكل منصة الحفر العادية او شبه الغائصة ، يمكن تحويلها الى مختلف الاتجاهات فتكسبُ المنصة قدرة اكبر على مقاومة العواصف والرياح والتيارات المائية الشديدة التي قد تبعدها عن فوهة البئر . وتوجه هذه الرفاصات بجهاز خاص على المنصة يعدّل وضعه باشارات يتلقاها من جهاز تحذيري مثبت على رأس البئر في قاع البحر . وبجهاز التعديل هذا ، يقرر رجال الحفر قدرتهم على البقاء ثابتين في موقعهم .

لقد يسّرت الوسائل التقنية الحديثة حفر آبار استكشافية في مياه يصل عمقها الى ١٥٠٠ قدم . غير ان الاستكشاف لا يعدو ان يكون جزءاً فقط من مهمة رجال الزيت المتشعبة ، فما ان يتم اكتشاف الزيت او الغاز بكميات تجارية حتى يبدأ العمل في تطوير الآبار واقامة ابراج ذات قواعد ثابتة في قاع البحر للبدء في اعمال الانتاج . وما هذه القواعد والابراج الضخمة التي نشاهدها اليوم الا بديلة لتلك المنصات الصغيرة التي تستعمل لانتاج الزيت في المياه الضحلة . وبواسطة بعض منصات الحفر المتطورة يستطيع رجال الزيت ان يحفروا اكثر من ٤٠ بئراً بزوايا منحرفة عن قاعدة البرج في قاع المحيط .

ومما يذكر ان المملكة العربية السعودية تمتلك اكبر حقــل مغمور في العالم هو ، « السفانية » ويقع هذا الحقل في الخليج العربي ويتراوح عرضه بين ١٥ و ٢٥ كيلومتراً . وطوله بين ١٥٠ و ١٦٠ كيلومتراً ، ويقدر انتاجه بحوالي مليون برميل في اليوم الواحد ، ويبلغ متوسط عمق الآبار في هذا الحقل نحو ٥٠٠٠ قدم .

وتستخدم ارامكو لأعمال الحفر في هذا الحقل منصة حفر بحرية متنقلة ذات دعائم

تُثبت في قاع البحر ، وتستطيع هذه المنصة العمل في مياه يصل عمقها الى ٢٥٠ قدماً . هذا مع العلم بأن عمق المياه في حقل السفانية يصل الى نحو ١٢٠ قدماً .

وهذا النوع من المنصات شائع الاستعمال في معظم المناطق البحرية حيث يمكن سحب الواحدة منها كاملة بما في ذلك جهاز الحفر المثبت عليها . وفي العادة تكون سطوح هذه المنصات ملائمة لتثبيت برج الحفر والآلات الرافعة وحاملات الأنابيب ومساكن العاملين عليها من عمال وفنيين . كما يمكن تخصيص مكان على سطحها لهبوط الطائرة العمودية « هيلوكبتر » التي قد تستخدم في التنقل بين هذه المنصة العائمة ومرافق الزيت الأخرى على اليابسة .

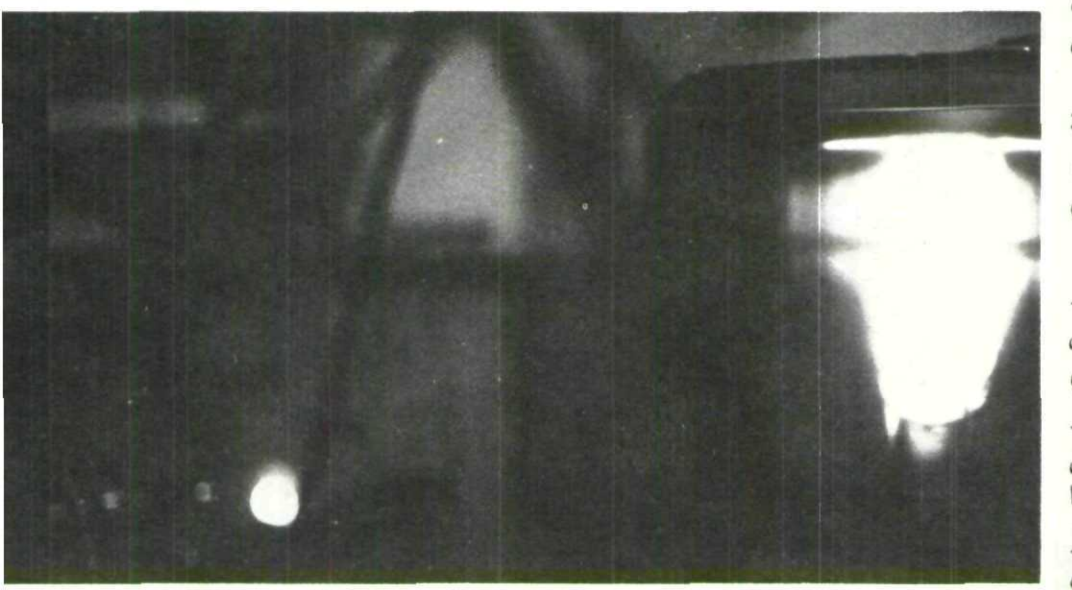
ومن حقول الزيت المغمورة التابعة للمملكة العربية السعودية علاوة على حقل السفانية حقول : « ابو سعفة » و « البري » و « منيفه » و « الظلوف » و « مرجان » .

يقول احد الخبراء في صدد حفر آبار الزيت في المناطق المغمورة : انه يجب ان تنتقل وسائل الحفر والانتاج المستخدمة حالياً في المناطق المغمورة ، من شكلها الحالي المتطور عن الوسائل المستخدمة على اليابسة ، الى وسائل تصمم اصلاً للعمل في المياه العميقة ، وهذا يحتاج الى وسائل تقنية غير عادية . ومن الأفكار الحديثة التي تدور حول الانتاج من المياه المغمورة ، فكرة تدعو الى تصميم شبكة للانتاج تعمل في قاع البحر وتزن نحو ٦٠٠ طن .

ومما تجدر الاشارة اليه ان شبكة الانتاج المغمورة هذه يمكن التحكم فيها ومراقبتها من مركب او منصة بحرية قائمة فوقها او حتى من مرفق بعيد على اليابسة . كما يمكن لبرج الحفر القائم فوق سطح شبكة الانتاج المغمورة ان ينزل المثقب عبر عارضة فوق الشبكة ليحفر بئراً انتاجية اضافية اذا ما اريد ذلك . ومن البئر يتدفق الزيت عبر خطوط تجميع ، ثم يجري الى الشاطيء داخل خط انابيب مثبت في قاع البحر ، او يصعد الى السطح داخل انبوب قائم يفرغ الزيت الخام في ناقلة راسية .

وباستعمال الاجهزة والمعدات الحديثة ستغدو عمليات انتاج الزيت من المناطق المغمورة شبيهة الى حد ما ، باعمال الفضاء . فبواسطة الأجهزة الالكترونية يمكن تشغيل وتعديل اعمال المرفق وكذلك فتح الصمامات ، أو اقفالها ، واعداد اجهزة السلامة والأمان لتقفل او توقف اي جزء من المرفق اذا ما تعطل ذلك الجزء .

ولبعض شبكات الانتاج المغمورة جهاز خاص يشبه الرجل الآلي (روبوت) يعمل حسب التعليمات التي يستقبلها . فعندما يحصل



أجهزة التصوير التلفزيونية المثبتة في قاع البحر تساعد الفنيين على القيام بأعمالهم سواء من ناحية التنقيب أو الصيانة .

في مضيق «باس» الواقع بين استراليا وتسمانيا تقوم هذه المنصة الثابتة في مياه عمقها ٢٥٠ قدما . وهي واحدة من خمس منصات تستخدم لانتاج الزيت والغاز من المناطق المغمورة .

عطب ما ، ينزل هذا الجهاز (روبوت) الى قاع البحر ويوجه نحو مواطن العطب فيستبدل الجزء المعطوب بآخر صالح ثم تفحص العملية ويعاد الجهاز الى مقره في مركب الصيانة والتشغيل .

ويستطيع الفني الذي يعمل على مركب الصيانه الآنف الذكر ، ان يراقب اعمال هذا الجهاز (روبوت) من خلال آلات التصوير التلفزيونية المزودة بالاضاءة المسلطة للتأكد من سير مراحل عملية الاصلاح . وفي الحالات التي يعجز (روبوت) عن اصلاحها ينزل المختص الى مكان العطب ويصلحه بنفسه .

ومن التطورات الجديدة المقترحة في هذا الصدد ، تصميم شبكات انتاج مغمورة تعمل على عمق يبلغ ٣٠٠٠ قدم على ان تكون فوهة البئر داخل حجرة ذات ضغط هوائي معين . وعند حدوث اي عطب ، تنزل اليها غواصه تتسع لاربعة اشخاص وترسو على الحجرة التي تضم اجزاء فوهة البئر ، فينزل الفنيون من الغواصة الى داخل الحجرة ويصلحون الخلل بأيديهم .

وهناك مخططات اخرى ترمي الى تطوير شبكات انتاج جديدة لا تزال قيد البحث والتصميم . ومن اهم ما يُعنى بــه المهندسون هو وقاية العاملين في الحقول المغمورة وكذلك المحافظة على الكائنات البحرية .

وعلى الرغم من التكاليف الباهظة والمتطلبات التقنية المتنوعة ، يعتبر المهندسون شبكات الانتاج الواسعة في المناطق المغمورة ، الطريقة المثلى في المستقبل القريب . فهذه الشبكات التي تثبت في قيعان البحار تساعد على انتاج الزيت من المناطق العميقة التي يتعذر على المنصات العائمة العمل فيها .

ان انتاج الزيت والغاز من المناطق المغمورة بالوسائل المذكورة آنفاً لا يضع حداً لمهمة رجال الزيت ، اذ عليهم ان يوصلوا هذاا لانتاج الى الشاطيء لمعالجته . وقد امكن مد انابيب للزيت على عمق ٣٧٠ قدماً في البحار الهادئة في السواحل الامريكية . لكن البحث عن الزيت في المنطقة البعيدة الغور ، يستلزم مد انابيب في بحار عميقة وهائجة الموج كذلك . ففي المياه ذات الأمواج العاتية في بحر الشمال وعلى مسافة من الشواطيء الاسترالية تتطلب اعمال مد الأنابيب معدات واجهزة ومراكب اقوى واضخم من تلك المستعملة في المناطق البحرية الأخرى .

ومما يُذكر ان عمليات اعداد الأنابيب قبل انزالها الى البحر تتم على ظهر المراكب الخاصة بهذا النوع من العمل ، فيُؤتى اولاً بأجزاء مغلفة من الأنابيب حيث يجري لحمها ، ثم فحصها بالأشعة السينية ، ثم تغليف موضع اللحام بمادة واقية ، وبعد ذلك ينزل الأنبوب ذو الوصلات الملحومة بلطف الى قاع البحر . وتقول احدى الشركات انه سيصبح بامكانها ان تمد انبوباً مترابطاً في مياه يتجاوز عمقها ١٥٠٠ قدم .

ومنذ بضع سنوات خلت ، كانت الأنابيب تحمل الزيت والغاز من الحقول المغمورة الى مرافق التصنيع على الشاطيء ، الأمر الذي كان يترتب عليه زيادة في تكاليف الانتاج . اما اليوم فهناك طريقتان اقتصاديتان لنقل انتاج الحقول المغمورة . احداهما تتم بنقل الزيت الى ناقلة عائمة راسية على مقربة من الآبار ، تكون بمثابة الخزان حيث تفرغ حمولتها في الناقلات التي تحمل الزيت الى الأسواق العالمية . والطريقة الأخرى تقوم على اساس بناء خزان ضخم ثابت على ارض البحر ، يكون بمثابة مركز لتجميع الزيت المستخرج من الآبار ، فتأتي الناقلات اليه وتأخذ حمولتها منه .

كلتا الحالتين : الناقلة العائمة او وفي الخزان المغمور ، يرتفع الزيت من قاع البحر الى السطح بواسطة انبوب عمودي مثبت بعوامات تحفظه عمودياً معتدلاً . وعلى السطح يُشد آخره بعوامة كبيرة تثبت في مكانها بحبال قوية مشدودة الى مراسي ضخمة .

وبهذا الأسلوب يمكن انتاج الزيت من مناطق يصل عمق الماء فيها الى ١٥٠٠ قدم او اكثر من ذلك . اما في المناطق الأبعد غوراً فقد يكون هذا الأسلوب غير مجدٍ . ولذا قامت احدى شركات الزيت الكبرى باجراء عمليات دقيقة استخدمت فيها الآلات الحاسبة الالكترونية سعياً وراء تصميم انبوب رافع للزيت يمكن استخدامه في مناطق يزيد عمق الماء فيها على نصف الميل ، اي ما يعادل ٢٦٤٠ قدماً .

لقد رافق انتاج الزيت من المناطق المغمورة الكثير من التطور والتجديد في المعدات والأجهزة. ففي دبي على الخليج العربي ، مثلاً ، أُنزل الى قاع البحر قبل اربع سنوات خزان للزيت الخام يعتبر الأول من نوعه من حيث الحجم والتصميم . وفي الخليج العربي ايضاً تستعمل شركة الزيت العربية الامريكية (ارامكو) الناقلة (ف . أ . د يفز) كخزان عائم في المناطق المغمورة وذلك بعد ان تم تطويرها واعدادها للقيام بهذه المهمة . وعلى شواطيء المملكة العربية السعودية على الخليج العربي صارت فرض شحن الزيت تمتد عدة اميال في عرض البحر او تقام الجزر الاصطناعية حيث تكون المياه عميقة صالحة لرسو الناقلات العملاقة فتأخذ حمولتها من الزيت الخام بسهولة ويسر .

وما من شك في ان الأجهزة المتطورة والمعدات المتجددة والابتكارات والاختراعات الحديثة قد ساعدت رجال الزيت على البحث والتنقيب في التلال المغمورة بمياه المحيطات والتجاويف العميقة في قيعانها لاستخراج الزيت والغاز اللذين يعتبران من دعائم الحضارة واسس التقدم ■

ابراهيم احمد الشنطي — هيئة التحرير

تحافظ هذه الأذرع الست على معدل الشد الصحيح في أبراج الحفر البحرية .

قصة

«ستين» الصغير

بقلم : الفونس دوديه
تعريب : فاضل السباعي

كان يدعى «ستين»، ستين الصغير . كان صبياً من ابناء باريس ، هزيلاً ، شاحب الوجه ، يبدو وكانه في العاشرة من عمره ، أو لعله في الخامسة عشرة ، فالأمر مع هؤلاء الصبية يصعب على التقدير . كانت أمه قد قضت نحبها ، وأما أبوه – وهو جندي سابق في البحرية – فكان يعمل حارساً لحديقه عامة صغيرة في حيّ « التامبل » . والحق ، ان الشيوخ ، والخادمات ، والعجائز المتقوّسات الظهور ، والأمهات الفقيرات ، وبالاختصار البسطاء من أهالي باريس ، الذين يلتجئون – هرباً من العربات – الى روضته المحاطة بالأرصفة .. هؤلاء جميعاً كانوا يعرفون « ستين » الأب ، ويحبونه حباً جماً ، وقد أدركوا أن وراء شاربيه الخشنين ، اللذين طالما أخافا الكلاب والمتسكعين على المقاعد ، تكمن ابتسامة ودود حنون ما أشبهها بابتسامة أم . ولم يكن على المرء ، من أجل ان يستمتع برؤيةهذه الابتسامة ، الا أن يسأل الرجل الطيب :

– وكيف حال ابنك الصغير ؟

الى هذا الحد كان « ستين » الأب مولعاً بطفله ! ويا لسعادته به عندما كان يوافيه عصر كل يوم ، في عودته من المدرسة ، فيترافقان معاً في نزهة عبر مسالك الحديقة ، متوقّفين عند كل مقعد ، يسلّمان على المتنزهين ، ويردان على مجاملاتهم اللطيفة .





أن ذلك كله قد تغيّر ، مع الأسف ، منذ ضرب « البروسيون » حصارهم على باريس ! فحديقة « ستين » الأب أغلقت في وجوه روّادها ، وقد انقلبت الى مستودع للوقود ، توجب على المسكين ان يقوم بحراسته على نحو موصول . . فأخذ يمضي أيامه في هذه البقعة الموحشة ، وحيداً ، قلق الفكر ، غير متاح له أن ينعم برؤية طفله الا في ساعة متأخرة من المساء لدى عودته الى البيت . . . وليتك ترى ، في ذلك ، الى شاربيه وهما يرتعشان اذ يأتي على ذكر أعدائه « البروسيين » ! وأما « ستين » الصغير ، فلم يكن ليشكو ، من هذه الحياة الجديدة !

الحصار ! . .

انه لشيء ممتع حقاً لدى الصبيان الأشقياء : فلا مدرسة ، ولا واجب يؤدونه ، بل هي اجازة ممتدة ، ينتشرون خلالها في الشارع ، فكأنه بهم ساحة معرض !

أخذ الصبي يمضي ، سحابة نهاره خارج البيت . فهو يواكب كتائب الحي في انطلاقها الى متاريس الدفاع ، مؤثراً من الكتائب تلك التي تصاحبها موسيقى صادحة ، حتى لقد أمست لديه دراية بها ، فهو يحدثك ، بثقة بالغة ، عن أن موسيقى الكتيبة ٩٦ ليست بذات شأن ، وأما الكتيبة ٥٥ فان موسيقاها رائعة ! وفي أحيان ، يمضي وقتاً في التفرج على الحرس الوطني وهم يقومون بتمارينهم ! كما كانت هناك ، صفوف الانتظار . .

اجل فقد كان ينضم — وسلّته في ذراعه — الى تلك الصفوف الطويلة التي تنتظم ، في عتمة الأصباح الشتوية ، أمام حواجز الأفران وحوانيت القصابين ، حيث يجري التعارف بين الناس — فيما تغوص أقدامهم في مياه الأمطار — ويتحدثون في شؤون السياسة ، وبصفته ابن السيد « ستين » ، فان كلا منهم يطالبه بابداء رأيه ! الا أن أكثر ما كان يستهويه « لعبة الغالوش » الشهيرة ، التي أتى بها جنود مقاطعة « بريتونيا » معهم ، وأشاعوها بين الناس ابّان الحصار . وهكذا فان « ستين » الصغير ، اذا لم يكن في معاقل الحرس الوطني ، ولا كان أمام الأفران ، فأنت اذن على يقين من أنك واجده في حلبة « الغالوش » ، في « ساحة شاتو دو » . ولن تراه ، بطبيعة الحال ، مشاركاً في اللعب — فان ممارسة هذه اللعبة تقتضي مزيداً من النقود — ولكنه كان يستمتع بمتابعة اللاعبين بناظريه ، وحسب !

وانه ، في ذلك ، ليستحوذ على اعجابه لاعب منهم ، بعينه ، فارع القامة ، ذو سترة زرقاء ، ما كان يأتي الا بالقطع النقدية من ذات المئة ، وحينما يهرول ، تسمع وسوسة النقود من أعماق جيوب سترته !

وتدحرجت ، ذات يوم ، قطعة نقدية ، لتستقر بين قدميه . فانحنى ليلتقطها . . . فاذا الفتى الفارع القامة ، يخاطبه بصوت خفيض :

— هيه ! أراها قد حولت عينيك ! طيب ، اذا شئت ، أسررت لك من أين يؤتى بمثلها !

حتى اذا انتهت المباراة ، انتحى به ركناً من اركان الساحة ، وزيّن له ان يرافقه الى حيث يبيعان الجرائد للبروسيين : فالرحلة الواحدة تدرّ ثلاثين فرنكاً !

أن « ستين » يعلن ، للوهلة الأولى ، رفضه وهو في سوْرة غضب . ثم يلبث ثلاثة أيام لا يحضر المباريات . . ثلاثة أيام رهيبة ، لم يطعم فيها زاداً ، لا ، ولا عرف جفنه معنى الرقاد . وفي الليل ، كانت تتراءى له أكوام الغالوش متكدّسة عند قدمي سريره ، والنقود من ذوات المئة ، تتدفق في بريق يبهر الأبصار ! كان اغراء بالغ السطوة ، أقوى من أن يصمد أمامه . وهكذا عاد ، في اليوم الرابع ، الى « شاتو دو » ، ليلتقي بالفتى الفارع القامة ، ويستسلم لاغراء النقود !

وانطلقا ، في صباح غطته الثلوج ، وقد علّق كل منهما بكتفه حقيبة من قماش ، بينا أخفى تحت قميصه صحفاً ، واذ بلغا باب « فلاندر » ،

كان وجه النهار قد أوشك أن يسفر ، وههنا أخذ الفتى الفارع القامة ، الصغير « ستين » من يده ، مقترباً به من الخفير – وكان رجلاً شهماً من ابناء المنطقة المقيمين ، ذا أنف شديد الاحمرار وسيماء تنمّ عن طيبة – قائلاً له في مسكنة .

– دعنا نمر ، يا سيدي الرحيم . . . أمنا طريحة الفراش ، وأبونا متوفى . سأمضي مع أخي الصغير ، عسانا نلتقط من الحقل حبّات بطاطا !

ثم أخذ يبكي . . على حين استشعر « ستين » خجلاً ، فطأطأ رأسه .

تفرّس الخفير فيهما لحظة ، ثم ألقى نظرة خاطفة الى الطريق ، المقفر المغطى بالثلوج ، وقال لهما ، وهو يتنحّى جانباً :

– هيّا أسرعا .

واذا هما في طريق « اوبيرفيلييه » ، والفتى يطلق ضحكة !

أخذ « ستين » الصغير يرى ، على نحو غامض وكأنه في حلم ، المصانع ، وقد تحوّلت الى ثكنات ، والمتاريس الموحشة التي نشرت فيها ملابس رثة مغسولة ، وأما المداخن العالية التي تخترق الضباب ذاهبة في السماء ، فهي الآن ولا دخان فيها ، بعد أن عاثت في جوانبها طلقات المدافع . وكان ، ثمة ، حارس وعدد من الضباط متلفّعو الرؤوس ، يتطلّعون بمناظيرهم . وعن كثب ، انتصبت خيام صغيرة ، وقد بللها ذائب الثلج ، قبالة نيران خامدة .

كان كبيرهما يعرف الطريق جيداً ، فأخذ يتنقّل بين الحقول ، متحاشياً أن يقترب من المخافر العسكرية . ولكنهما – دون ان يفلحا في الافلات – أصبحا وجهاً لوجه أمام جماعة من القناصة الفرنسيين ! كانوا متدثرين بمعاطفهم ، قاعدين القرفصاء في حفرة تغمرها المياه على طول خط « سواسون » الحديدي . وههنا أعاد الفتى ، باتقان ، سرد حكايته المختلقة ، ولكن بدا أنه لن يسمح لهما بالمرور .

وفيما هو ينتحب مستعطفاً ، خرج من مبنى حارس الممر ، الى الطريق ، رقيب كهل ، مجلل بالشيب ، متغضّن القسمات ، يشبه « ستين » الأب ، وصاح بهما :

– هيّا ، ايها الولدان ! لنكف عن البكاء . سيسمح لكما بالمرور ، من اجل حبات البطاطا التي تبغيان التقاطهما . ولكن ادخلا اولاً ، فاستدفئا لحظات . اني لأراه ، هذا الصبي الصغير ، متجمداً من شدة البرد !

ولكن ، وا أسفاه : لم يكن « ستين » الصغير يرتعد من البرد ، بل من الخوف . . من الخزي ! . .

وفي المخفر ألفيا بعض الجنود ملتفين حول نار هزيلة – فكأنها ، بحق ، نار أرملة عجوز ! وهم يدفّئون بلهيبها قطع البسكويت على رؤوس حرابهم . وتدانى بعضهم من بعض كي يوسعوا للولدين مكاناً . ثم قدموا لهما اليسير من القهوة ، فارتشفاها . وأقبل ، في اثناء ذلك ، ضابط ، توقف في الباب ، واستدعى الرقيب ، ليسرّ اليه ببضع كلمات ، ثم ينسحب في مثل لمح البصر .

وما لبث الرقيب أن أعلن ، مشرق المحيا :

– يا شباب ! « سيكون عندنا تبغ » هذه الليلة . . لقد اكتشفنا كلمة السر عند البروسيين . . أعتقد أننا في هذه الكرّة ، سنسترد منهم منطقة « بورجيه » الغالية !

وسرعان ما اطلق الجنود القهقهات وصيحات الاستحسان عالياً ، وأخذوا يرقصون ، وينشدون ، ويجلون حرابهم . فما كان من الولدين الا ان انتهزا هذه الجلبة ، فتواريا عن الأنظار .

لم يبق أمامهما ، بعد اجتيازهما الخندق ، الا السهل ، وفي نهايته جدار أبيض ، ممتد ، تتخلّله كوى الرمي ، فاتجها صوبه ، وهما يتوقّفان ، بعد كل خطوة ، وينحنيان ، متظاهرين بأنهما يلتقطان حبّات البطاطا !

والصغير « ستين » ما يفتأ يردد :

– لنعد من حيث أتينا . . لنكف عن الذهاب اليهم !

والفتى يرفع كتفيه غير مستجيب ، ويمضي قدماً .

وبغتة ، ترامى الى أسماعهما صوت بندقية تلقّم . فصاح الفتى :

– انبطح أرضاً !

وهو يلقي بنفسه على الأرض .

ثم أرسل ، وهو منبطح ، من فمه صفيراً . فاذا صفير مماثل يرتد اليه من وراء الجدار الأبيض . فتقدّما زاحفين . . وأمام الجدار ، على مستوى الأرض ، برز شاربان اصفران من تحت قلنسوة قذرة . فقفز الفتى الى داخل الخندق ، واستوى الى جوار الجندي البروسي . وقال ، وهو يشير الى رفيقه :

– انه أخي .

كان « ستين » ضئيل الجسم جداً ، حتى ان البروسي ضحك لحظة وقعت عينه عليه . واضطر الى أن يأخذه بين ذراعيه ، ليرفعه الى فم الكوة .

وفي الجانب الآخر من الجدار ، كانت ثمة أكوام عالية من الأتربة ، وأشجار مطروحة على الأرض ، وحفر في الثلج سود ، في كل حفرة جندي يعتمر مثل تلك القلنسوة القذرة ، وله الشاربان الأصفران عينهما ، وكانوا يضحكون ، وهم يتابعون بأنظارهم الولدين في عبورهما الكوة .

وهناك في احد الأرجاء ، نهض بيت بستانيّ محاطاً بجذوع الأشجار ، في الطابق الأدنى منه ، حشد من الجنود يلعبون الورق ، وبعضهم يعد الحساء على لهيب نار عظيمة ، كانت تفوح ، من الملفوف واللحم ، رائحة زكية ، أين منها ما هو في معسكر القناصة الفرنسيين ! واما الضباط ، فكانوا في الطابق العلوي حيث يترامى الى الأسماع عزف على البيانو ؟

وعندما دخل الباريسيان ، استقبلا بعاصفة من التهليل ، فسلّما صحفهما . وما لبثا حتى قدّمت اليهما أقداح من شراب دافىء ، ثم أعطيا فرصة الكلام . كانت تبدو ، على هؤلاء الضباط جميعاً ، سيماء الصلافة والخبث معاً ، الا أن الفتى استهواهم ببديهة أبناء الضواحي البادية في حديثه ، وبألفاظه السوقية البذيئة ! فكانوا يقهقهون ، وهم يرددون كلماته ، ويغرقون – متلذذين – في هذا الوحل الباريسيّ الذي حمل اليهم !

كان يودّ « ستين » الصغير أن يتحدث ، هو أيضاً ، ليثبت لهم أنه ليس غبياً ، ولكن شيئاً ما كان يتحول بينه وبين الكلام . كان ثمة ، قبالته وبعيداً عن الآخرين ، ضابطاً بروسيّ أكبر سنا وأكثر نزوعاً الى الجد من زملائه ، كان يقرأ ، أو بالأحرى يتظاهر بالقراءة ، لأن عينيه ما كانتا لتفارقاه . كان في هذه النظرات ، من معاني الحنان واللوم معا ، ما يحمل على الظن بأن لهذا الرجل في بلده ولداً في مثل عمر « ستين » ، حتى لكأنه يحاور نفسه فيقول : « اني لأفضل الموت على أن أرى ابني يمتهن هذا العمل » .

أحس « ستين » ، منذ تلك اللحظة ، كما لو أن يداً ثقيلة جثمت على قلبه ، فمنعته من الخفقان .

وأقبل على الشراب الدافىء ، لعله يتخلّص

من القلق الذي انتابه . ثم اذا هو يسمع ، على نحو غامض ، ومن خلال القهقهات العريضه ، رفيقه يتحدث هازئاً بالحرس الوطني ، وبطريقتهم في اداء تمارينهم محاكياً مشيتهم العسكرية في الاستعراض الذي جرى في « ماريه » ، واستنفارهم ليلاً وهم وراء المتاريس ثم ما لبث حتى خفض صوته ! فتدانى منه الضباط ، وسرعان ما بدا على وجوههم اهتمام : لقد كان الوفد ينبئهم بسرّ الهجوم الذي يتهيأ له القناصة الفرنسيون ! ! . .

وقع ذلك على « ستين » وقوع الصاعقة ، فاذا هو ينتصب واقفاً ، ويعلن في غضب :

— أما هذا فلا يا فتى . . أنا لا أوافق !

الا أن رفيقه لم يفعل شيئاً سوى أن أطلق ضحكة ، وتابع حديثه . وما أن فرغ ، حتى هبّ الضباط واقفين ، وأشار احدهم للولدين نحو الباب ، وقال منتهراً اياهما :

— هيا انصرفا !

ثم اخذوا يتحدثون فيما بينهم ، بلغتهم الالمانية على عجل . ومضى الفتى يختـــال في مشيته فكأنه عظيم من العظماء ، وهو يعبث بالنقود محدثاً بها رنيناً ! وتبعه « ستين » ، خافض الرأس ، واذ مرّ ، بالقرب من الضابط البروسي الذي حالت نظرته اليه بينه وبين أن يتكلم ، طرق سمعه صوت منـــه أسيف ، يرطن بلهجة فرنسية ركيكة :

— غير لائق صنيعك هذا . . غير لائق . .

فطفرت من مقلتيه الدموع .

* * *

لم يكد الولدان يبلغان السهل ، حتى أخذا يجريان في طريق العودة ، وقد امتلأت حقيبتاهما بالبطاطا مما أعطاهما البروسيون . واستطاعا أن يجتازا دون عـــائق خندق القناصة الفرنسيين ، حيث كانوا يتأهّبون لهجومهم الليلي . كانت الوحدات تتوافد ، بصمت بالغ ، لتتجمع خلف الجدران . وكان الرقيب الكهل ، هناك ، منهمكاً في تنظيم رجاله ، وقد بدت عليه امارات السعادة . وقد عرف الولدين ، مرورهما به ، فافترّ ثغره عن ابتسامة ودود !

أواه ! كم كان أليماً وقع هذه البسمة على « ستين » الصغير ! ودّ لو يصرخ بهم :

— لا تمضوا الى هناك . . لقد خنّاكم !

لولا ان هتف به الفتى :

— ان أنت أفصحت عن شيء ، قتلونا رمياً بالرصاص .

فألجم الخوف لسانه .

ثم انهما دخلا مبنى مهجوراً في « كورنوف » ليقتسما النقود . والحق ، أن القسمة تمّت « بنزاهة » ، وان « ستين » الصغير ، اذ تناهت الى سمعه رنّة النقود الرائعة وهي تحت ردائه ، فانتقل معها بخياله الى ما يمكنه أن يفعل بها ، ذلك كله ما أفقده الاحساس ببشاعة الجريمة التي اقترف !

ولكن هذا الولد التاعس ، عندما أمسى وحيداً بعد أن غادره الفتى عند ابواب باريس ، أحس بأن جيوبه قد أخذت تثقل بالذي فيها وتزداد ثقلاً ، وأن اليد التي جثمت على قلبه ، تحكم الآن قبضتها أكثر من أية لحظة سبقت .

ولم تعد باريس ، في ناظريه ، كعهده بها . والناس ، الذين يمرون به ، يرشقونه بنظرات شزراء ، كما لو أنهم يعرفون من أين أتى ! وكلمة « خائن » تتردد ، في سمعه ، مع وقع دواليب العربات على الأرض ، وفي قرع الطبول وهي تؤدي تمارينها على طول القناة !

وبلغ ، أخيراً ، منزله ، وأحس براحة قصوى ، اذ تبين أن والده لم يعد بعد . فهرع الى غرفته ، ليخفي ، تحت مخدته ، تلك النقود التي غدت عبئاً ينوء به كاهله !

ولم يبد والده ، قط ، منشرح الصدر محبوراً ، قدر ما بدا في دخوله البيت ذلك المساء . كان قد تلقى لتوه أنباء من الريف مؤدّاها أن حالة البلاد تسير نحو الأفضل . واذ جلسا يتناولان العشاء رنا الجندي المتقاعد بعينه الى بندقيته المعلقة على الجدار ، مسائلاً ابنه ضاحك السن :

— ألا قل لي يا ولدي : كيف يكون شأنك مع البروسيين عندما تغدو شاباً ؟ !

* * *

حوالي الساعة الثامنة ، جلجلت المدافع . فهتف الأب في سلامة طويته :

— ان هذا في « اوبيرفيلييه » . انهم يلتحمون في « بورجيه » .

لقد كان يعرف حصونها كلها .

وأما « ستين » الصغير ، فقد فرّت الدماء من وجهه . وهرع الى النوم ، متعللاً بتعب ألمّ به ولكن عينيه لم تستطيعا غمضاً . كانت المدافع تواصل قصفها . وتمثل في خاطره القناصة وهم يتسللون ، تحت جنح الليل ، ليباغتوا « البروسيين » ، فاذا بهم يقعون — هم أنفسهم — في كمين ! وعاد يتذكر الرقيب الذي ابتسم له ، فرآه بعين الخيال منطرحاً فوق الثلج ولا حراك فيه ، وكم من جندي سواه متناثري الأشلاء حوله ! . . وثمن هذه الدماء كلها مخبأً هناك ، تحت مخدته ، والسبب هو نفسه ، ابن السيد « ستين » ، ابن جنديّ . . . فخنقته العبرات .

ترامى الى سمعه ، من الغرفة المجاورة ، وقع خطوات أبيه ، وهو يمشي ، ثم وهو يفتح النافذة . كان يعلو ، في الساحة تحت ، نفير التعبئة . وكتيبة من الحرس الوطني تنظّم صفوفها ، استعداداً للانطلاق . ليس من شك في أن معركة حقيقية تدور رحاها . والشقيّ المعذب ، لم يستطع أن يتمالك نفسه من أن . . يبكي !

هتف « ستين » الأب :

— ما بك يا ولدي ؟

وهو يقتحم عليه غرفته .

لم يعد في وسع الولد أن يتحمل المزيد ، فقفز من سريره ، مرتمياً على قدمي أبيه . . فتدحرجت ، في ذلك ، الريالات على الأرض !

صرخ الشيخ وجلاً :

— ما هذا ؟ هل سرقت ؟

ههنا . . اندفع « ستين » الصغير يروي ، غير متوقف ، كيف أنه ذهب الى « البروسيين » ، وكل ما قد فعل ! وكان كلما أفاض في اعترافه ، ازداد احساساً بأن الكابوس يزايل قلبه . كان اقراره بذنبه ، يخفف من عذاب ضميره . .

أصغى « ستين » الأب مرتاعاً . ثم ما لبث بعد أن فرغ ابنه — أن أخفى رأسه بكلتا يديه ، وأجهش بالبكاء .

أراد الولد ان يتكلم :

— أبتاه ، أبتاه !

ولكن الشيخ دفعه ، دون ان ينبس . وانحنى يجمع النقود ، ثم سأله :

— أهذا كل شيء !

أومأ « ستين » الصغير بأن ذلك هو كل ما هنالك .

فاختطف الشيخ بندقيته من على الحائط ، وجعبة الذخيرة ، وقال ، وهو يضع النقود في جيبه :

— حسن ، اني ذاهب لأردها اليهم .

وانكفأ يهبط الدرج — دون أن يضيف كلمة ، أو يلتفت برأسه الى الوراء التفاتة واحدة — لينخرط في صفوف الحرس الوطني ، الذاهبين في ظلمة الليل .

ومنذئذ .. لم تقع عليه عين أبداً ■

فاضل السباعي — دمشق



عَقَاقِيرُ مِنْ أَعْمَاقِ البِحَارِ

من لُعاب الأخطبوت تستخلص مادة «سيفالوتكسين – Cephalotoxin» السامة التي تمنع تخثر الدم .. وهي بذلك تعتبر أكثر فعالية من « كبريتات الكينيدين – quinidine stulfate » المستخدمة حالياً في معالجة ضربات القلب غير المنتظمة .



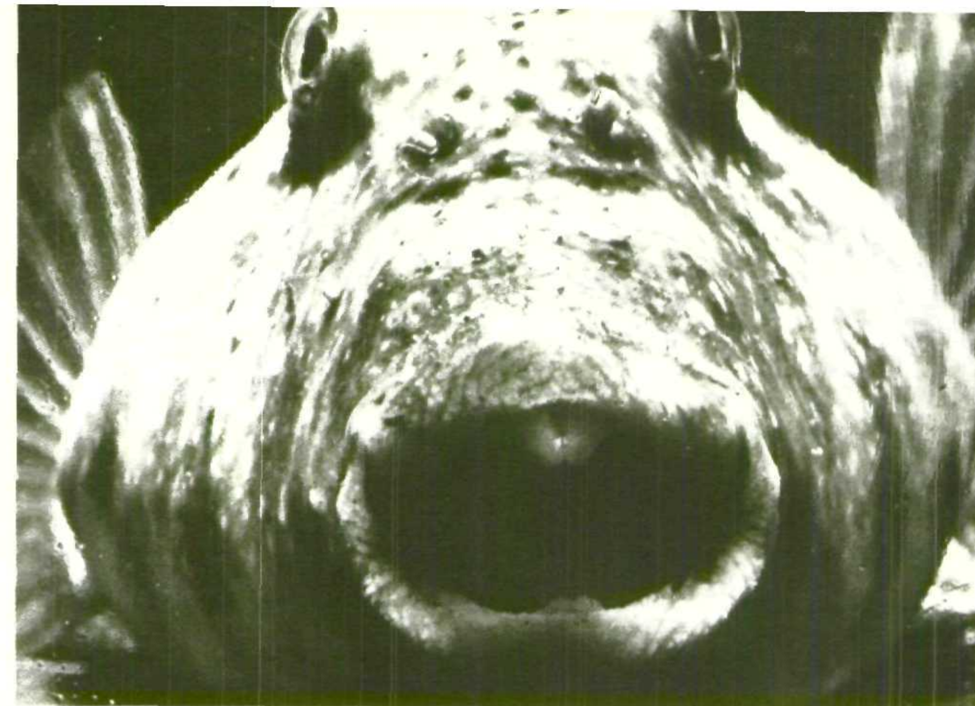
مــادة « باولين – paolin » المستخلصة من « الحبار – squid » أثبتت فعاليتها في انقاذ حياة الفئران المستخدمة للتجارب المختبرية بعد حقنها بفيروس الشلل والانفلونزا .

أحد الغواصين المحترفين يسبر أغوار المحيطات لجمع بعض العينات البحرية من أعماق البحر .

كان للعلماء والأطباء العرب السهم الأوفر في ارساء قواعد فن الصيدلة وتحضير العقاقير الطبية . وقد برعوا في هذا المضمار بحيث غدوا رواد علم الصيدلة والأعشاب آنذاك ، وذلك لأعتقادهم بأن علاج معظم الأمراض ينحصر في مملكة النبات . وقد امتاز اطباء العرب القدماء بمعرفة خصائص العقاقير ، سواء كانت من الأصل النباتي او الحيواني او المعدني وكيفية استخدامها لمداواة الأمراض . فمن النباتات ما تُتخذ منه الأصماغ ، واشباه القلويات ، والمستحلبات كعقاقير طبية . ومنها ما يُستخرج منه اصناف الطيب والعطور وانواع الدهون والمسوحات والمسهلات . وقد الفت كتب عربية عديدة في دراسة النباتات والأعشاب ، منها كتاب « ابن البيطار » الطبيب العربي المشهور الذي وصف في كتابه اكثر من (١٤٠٠) عقّار بين نباتي وحيواني ومعدني ، كما بيّن فيه فوائدها الطبية وكيفية استعمالها كأدوية واغذية .

وكما دأب العلماء ، قديماً وحديثاً على البحث والتنقيب عن سبل جديدة لتحسين وتطوير المواد الغذائية وتنمية الثروات النباتية والحيوانية لزيادة الانتاج في المواد الغذائية الضرورية وفق مقتضيات الحياة وتمشياً مع الزيادة المطردة في تعداد سكان هذا العالم ، كذلك دأب أطباء وعلماء آخرون على البحث والتنقيب عــن سبل ومصادر جديدة بغية تحسين المواد والعقاقير الطبية وتطويرها وتنميتها وزيادة طاقة انتاجها بصورة تتماشى مع متطلبات هذا العصر .

وبما ان العلماء كانوا وما يزالون ينقبون عن مصادر جديدة يجرون عليها تجاربهم العلمية ويجنون منها منافع لصالح الانسانية ، فقد وجهوا اهتمامهم في بادىء الأمر الى النباتات البرية يجرون عليها تجاربهم وابحاثهم ، ويستخرجون منها انواعاً عديدة من العقاقير والمواد الغذائية . وفي الوقت نفسه قام علماء آخرون بتوجيه اهتمامهم الى الفضاء فحققوا نصراً علمياً جديداً تكلل بوصول الانسان الى سطح القمر والعودة منه الى الأرض بسلام مصطحباً معه عينات من صخوره وترابه . وكانت أنظار العالم آنذاك تتجه الى نتائج تلك الرحلة التاريخية بدهشة واستغراب ، ولكن الرحلات الفضائية هذه اصبحت شيئاً مألوفاً في الوقت الحاضر ، واخذ عدد من العلماء والأطباء يحولون اهتمامهم الى سبر اغوار البحار واعماق

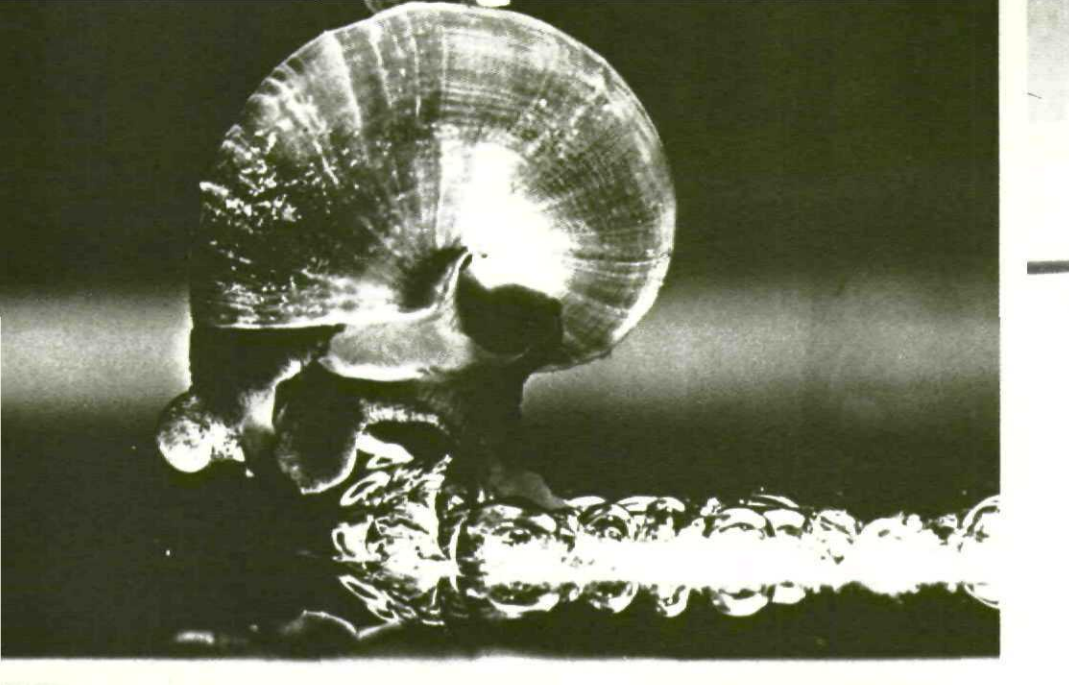


مـادة « التترودوتكسين – tetrodotoxin » المستخلصة من « سمك المنفـاخ – puffer fish » والتي ظلت طويلا تستخدم كعلاج لـداء « الربو – asthma » يجري حاليـا تجريبها كعلاج يساعد على تخفيف الآلام لدى المصابين بالسرطان .

المحيطات سعياً وراء إمكان استخراج بعض العقاقير الطبية من النباتات والحيوانات البحرية . ويضطلع بهذه المهمة العلمية الشاقة الآن فريق من الرواد البارزين الذين كرسوا اوقاتهم وجهودهم لانجازها وتحقيق النتائج المتوخاة من ورائها . وقد اطلقوا على هذه التجربة العلمية الجديدة اسم « علم العقاقير البحرية » .

وَقَد عكف هؤلاء منذ البداية على دراسة الأسماك السامة واضعين نصب اعينهم الفكرة القائلة بأن اية مادة طبيعية تكمن فيها قوة كافية لقتل مخلوق كبير مثل الانسان ، لا بد وان تكون هذه المادة قادرة على وقايته من الأمراض التي تصيبه ، اذا ما استعملت بطريقة طبية صحيحة . فكان اول عمل قام به هؤلاء العلماء هو اجراء دراسة تحليلية على قنافذ البحر والديدان البحرية فوجدوا انها تحتوي على مادة سامة تدعى « بونالينين – bonellinin » ، وهي من بين المواد الأخرى الفعالة التي تستطيع ان توقف نمو خلايا السرطان الحية . كما اجروا سلسلة من الدراسات على محار يُشبه الحلزون فاكتشفوا انه يفرز مادة تساعد على استرخاء العضلات . وهذه المادة يمكن تطويرها وتحويلها الى دواء ناجع لمعالجة الاضطرابات العصبية العنيفة . ومن خلال دراسة دقيقة اجراها العلماء على الأسفنج الأحمر اكتشفوا انه يحتوي على مادة مركبة قد تكون ذات فائدة في مكافحة مرض السل الرئوي . ومن ناحية اخرى فان الدراسات التحليلية التي اجريت على سمك « الرّعاد – electric eel » قد فتحت امام العلماء آفاقاً جديدة في اكتشاف ترياق يشفي من لدغات الحشرات السامة . كما دلت الاختبارات التي اجريت على ثعابين البحر على ان هذه الثعابين تحتوي على مادة ذات مفعول سريع في تخثّر الدم . فمن هذه الدراسات والاختبارات التحليلية الدقيقة ، خرج العلماء بنتائج مؤداها ان العينات التي جمعها الغواصون من اعماق البحار تزخر بمختلف المواد التي يمكن الاستفادة منها في استحضار انواع عديدة من العقاقير الطبية . ومع ان التجارب التي اجراها العلماء لم تشمل حتى الآن سوى واحد في المائة من آلاف الكائنات البحرية ، الا انه ثبت لهم وبكل وضوح ان الجهود التي يبذلونها في الاستفادة من المحيطات لا تحتاج الا لبعض الوقت ، ومع ذلك فانهم سيوالون تجاربهم ودراساتهم حتى تتكلل جهودهم بالنجاح .

وَضَمّ فريق العلماء الآنف الذكر نخبة من رواد العلم البارزين من بينهم الدكتور « روس نيجريلي » ،



تشكل الحيوانات الرخوية مصدرا وفيرا لأنواع عديدة من العقاقير الطبية . فمن «حلزون البحر – Snail» مثـلا يمكن استخـلاص « مضـادات للجراثيم – Antibiotics » ومن « البطلينوس » أو « السمك الصدفي – Clams » يمكن الحصول على مواد مانعة لتخثر الدم ، ومن «بلح البحر – Mussels» المسكنات التي تستخدم في « التخدير الموضعي – Local anesthetics » تفوق في فعاليتها «البروكايين – Procaine » « والكوكايين – Cocaine » بأكثر من ١٠٠٠ مرة .

يحتوي هـذا الحيوان البحري الـذي يطلق عليه «البارجة الحربية – Man-of-war » على مادة سامة شديدة الفعالية يمكن الانتفاع بها في حقل العقاقير الطبية .

رئيس مختبرات « اوسبورن » للعلوم البحرية في امريكا . فقد بدأ بحثه في أوائل الخمسينات باجراء دراسة على واحدة من فصائل « خيار البحر – sea cucumber » التي يقدر عددها بنحو ٦٠٠٠ فصيلة . وخيار البحر هذا كائن بحري صغير يكسو جسمه جلد رقيق ، ويعيش فوق الأرض في قاع المحيط . واغرب ما في هذا المخلوق البحري طريقته في الدفاع عن نفسه ضد اعدائه ، فهو اذا ما داهمه خطر ، يفصل عضواً ساماً من جسمه ويتركه لعدوه ، ثم ينطلق الى موقع جديد ليقيم فيه حيث يبدأ ببناء العضو المفصول من جديد . وقد اثارت هذه الظاهرة العجيبة ، اهتمام الدكتور « نيجريلي » ، فقام بفصل ذلك العضو الحيوي من اعضاء هذا الكائن البحري ، واستخرج منه مادة اطلق عليها اسم « هولوثورين – Holothurin ». وقد كشفت له التجارب التي اجراها بهذه المادة على عدد من الفئران ، عن ان هذه المادة تستطيع ان تضعف ، بل توقف احياناً نمو خلايا السرطان . وبما ان هذه المادة قد اثبتت انها تعوق « حركة انتقال نبضات الأعصاب – Transmission of nerve impluses » فقد تكون ولا شك ، ذات نفع لأطباء الجراحه بايقاف نزيف الدم عند اجراء عمليات البتر الجراحية .

ومن بين الشخصيات البارزة التي شاركت في هذه الأبحاث الرامية الى استخراج العقاقير البحرية الدكتور « تشارلز لين » من جامعة ميامي الأمريكية الذي اجرى عدة تجارب على نوع من قناديل البحر « jellyfish » له كيس هوائي يشبه المثانة يمكنه من العوم فوق سطح الماء ، ساحباً وراءه كتلة من الضفائر الجميلة السامة ، وشأنه في ذلك شأن حية الكوبرا ، فهو يفرز مادة « النيوروتكسين– neurotoxin» التي اذا ما اصابت ضحيته سببت لها اختلالاً في الجهاز العصبي . وبعد خمس سنوات من العمل المتواصل استطاع الدكتور « لين » ان يعزل من جسم قنديل البحر العضو الذي يولد مادة « فيساليا توكسين – Physalia toxin » التي يعقد الأطباء عليها آمالاً كبيرة في استخدامها في معالجة امراض القرحة ، والتهاب الكيس الزلالي ، وامراض القلب .

تجارب عجيبة

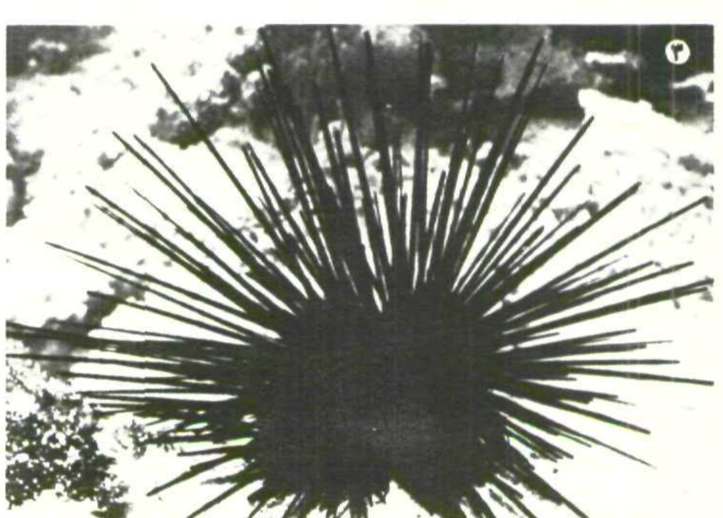
وأما الدكتور « بروس هالستد » ، من « معهد ابحاث الأحياء البحرية » في ولاية كاليفورنيا ، فيختلف تماماً عن سائر العلماء المتخصصين في علم الأحياء المائية ، فهو غواص بارع ، وكثيراً ما يغوص الى الأعماق ويجمع

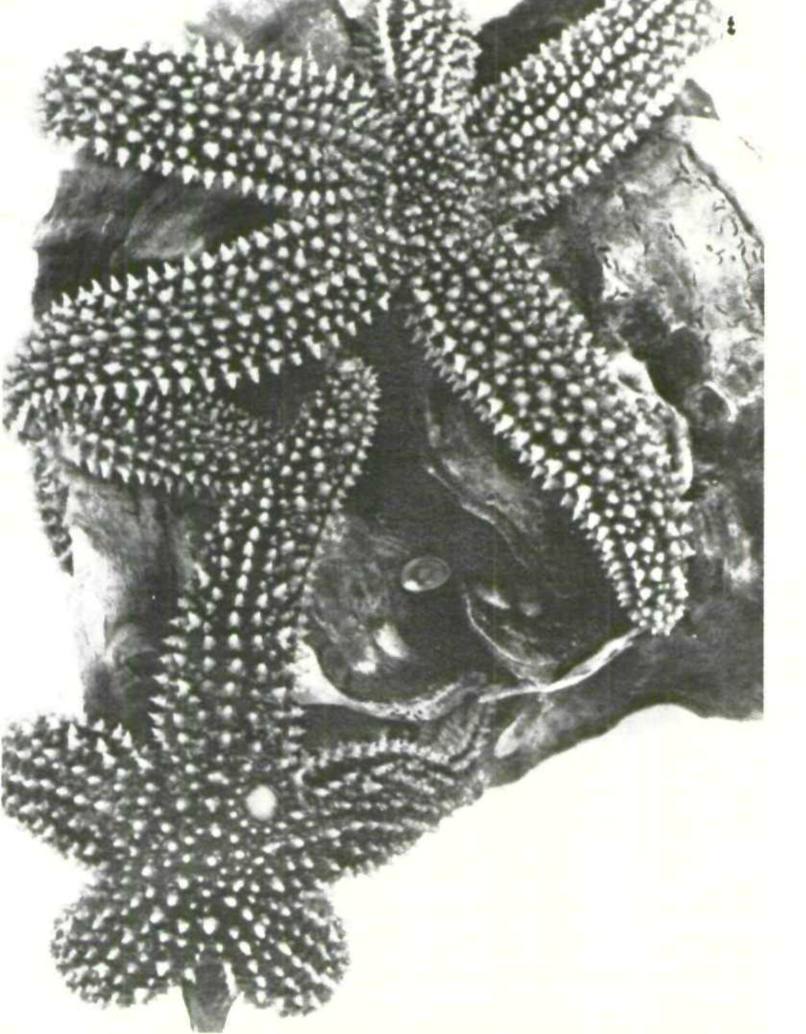
١ – الدكتور « جورج راجياري » ، أحد العاملين في مختبرات أوسبورن للأبحاث البحرية في مدينة نيويورك ، يحقن مادة هرمونية مانعة لنمو خلايا الجسم في مجموعة من قنافذ البحر الشوكية وقناديل البحر لمعرفة مدى رد الفعل لديها .

٢ – الدكتور «روس نيجرللي» أحد علماء الأحياء البارزين ، يجري فحوصا على حيوان «خيار البحر – sea cucumber» الذي تستخرج منه مادة «الهولثورين– holothurin» التي أثبتت جدواها في معالجة حالات التشنج أو الشلل التي تصيب الانسان نتيجة لعطل في المخ أو العمود الفقري .









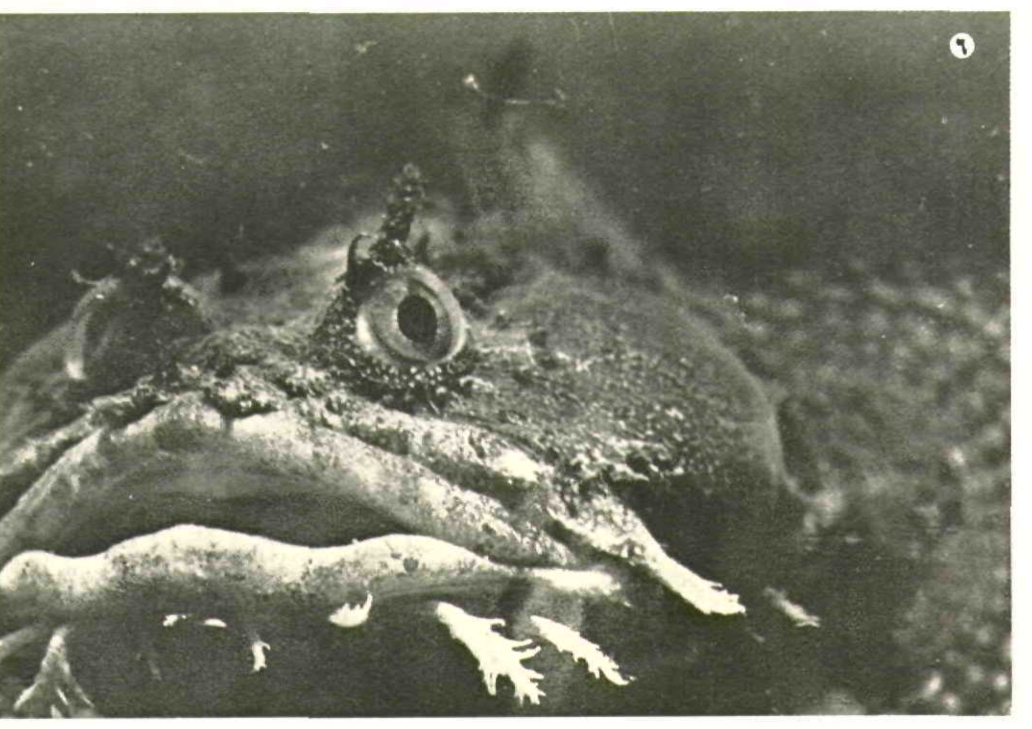
٣ – تحتوي «قنافذ البحر – sea urchins» على مادة سامة تعرف علميا بـ «بونلينين – Bonellinin» وهي شديدة الفعالية في ايقاف نمو خلايا السرطان الحية.

٤ – «نجمة البحر – starfish » من الحيوانات البحرية العديدة التي يجري عليها العلماء تجاربهم في نطاق حملتهم العلمية الرامية الى استخراج عقاقير طبية منها . وهذا الحيوان الذي يبدو هنا يهاجم محارا صغيرا ، يفرز مواد تبين للعلماء أنها منشطة للعضلات وأنها وسيلة فعالة لتنظيم النسل .

٥ – الدكتور «تشارلز لين» من جامعة ميامي في فلوريدا ، أثناء قيامه باحدى التجارب العلمية في المختبر .

٦ – المادة السامة المستخرجة من «السمك العلجومي – toadfish » لديها القدرة على ازالة السكر الفائض في الدم ، مما يجعلها تحل محل «الأنسلونين – Insulin » الذي يتعاطاه المصابون بداء السكري .





عيناته الخاصة بنفسه . وقد قام بجمع معلومات شاملة من مصادر عديدة مختلفة عن علم العقاقير والأبحاث الخاصة بالأسماك السامة . وهناك عدد من العلماء الآخرين الذين وجهوا اهتمامهم الى ما تحويه النباتات والأعشاب البحرية من مواد فعالة يمكن الاستفادة منها في استحضار عقاقير طبية تساعد على شفاء كثير من الأمراض المستعصية او المزمنة. فعلى سبيل المثال ، اكتشفوا ان « الالجينون – alginon » ، وهو نوع من انواع « مصل الدم التركيبي – Synthetic blood plasma » ، يستخرج من اعشاب البحر ، وكذلك مركبات «الكراغينان– carrageenan » و « الابيمار – ebimer » و « البلاتيف – Pallitives » التي تستعمل كعقاقير مهدئة لأمراض القرحة ، فانها تستخرج أيضاً من اعشاب البحر . ولعل من اغرب المركبات التي تم اكتشافها في هذا المضمار ذلك المركب المستخرج من رماد « عشب البحر – Kelp» والذي يساعد الجسم على التخلص من عنصر « الأسترنتيوم –٩٠ » الفلزي . وهو عنصر يعتبر من أخطر المركبات المعمّرة الناتجة عن الانشطار النووي .

ومن بين النباتات البحرية الأخرى التي وجد فيها علماء الطب ضالتهم المنشودة ، نبته « الأشنة » التي تعتبر من اصلب النباتات المعروفة في العالم واقواها على تحمل الأحوال الطبيعية . وقد استفاد العلماء من بعض المواد المستخلصة منها واستحضروا منها نوعاً من المرهم او الدّهون ليستخدم كعلاج للحروق والجروح بشكل اكثر فعالية من البنسلين .

وبعد ، فان هذه البحار التي يأوي اليها ما يقرب من ٥٠٠,٠٠٠ نوع من المخلوقات البحرية تحمل في اغوارها من الأسرار والغرائب ما يثير دهشة علماء الأحياء . غير ان الابحاث والمعلومات التي حظي بها هؤلاء العلماء قد اثارت تساؤلات عديدة من بينها السؤال التالي : ما الذي يجعل عدد نبضات قلب عجل البحر او « الفقمة – Seal » ينخفض الى اربع نبضات في الدقيقة الواحدة اثناء غوصه في الماء ؟ وسؤال آخر يقول : ما السر وراء ارتفاع نبضات قلب السرطان الى ٧٥٠ نبضة في الدقيقة اثناء عدوه عبر قاع المحيط ؟ وهناك سؤال ثالث يقول : كيف تعيش سمكة « الجرّيث – hagfish » المفترسة بثلاثة قلوب ؟

ان الاجابة عن هذه التساؤلات وغيرها من الأسرار الأخرى العديدة تكمن في الأبحاث الطبية التي يعكف العلماء على دراستها وتحليلها والتي ينتظر ان تسفر عن نتائج مذهلة تعود ثمارها بالنفع العميم على البشرية جمعاء ■

زكريا البنا – هيئة التحرير

اخبار الكتب

* تحل في عام ١٩٧٤ ذكرى انقضاء ستة قرون على وفاة الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب الذي عاش في الأندلس والمغرب وكانت حياته شديدة الخصب أدبا وشعرا وتاريخا .

وقد دعا العلامة الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان في مقدمة كتابه «لسان الدين بن الخطيب : حياته وتراثه الفكري» الى أحياء هذه الذكرى في المغرب ، باعتبارها أعظم مستودع لتراثه الفكري ، وناشد الهيئات العلمية المشتغلة بالأندلسيات المشاركة في هذه الذكرى باخراج آثار ابن الخطيب المخطوطة، ولا سيما الأجزاء الباقية من «نفاضة الجراب» وجعل هذه المناسبة مناسبة قومية وعربية وعالمية لاظهار آثار هذا الأديب العربي الماجد .

وقد عرف أن الهيئات الثقافية في المغرب رحبت بفكرة احياء ذكرى ابن الخطيب ، وشرعت تتخذ الاجراءات للدعوة اليها ولتكليف أدباء المغرب الاسهام فيها ، سواء باخراج تراث ابن الخطيب أو بدراسة شخصيته . كما بدأت تتصل بالمشتغلين بالآداب الأندلسية في البلاد العربية وديار الاستشراق لانجاح هذه المناسبة .

* من كتب التراث التي صدرت أخيرا جزءان من قسم العراق من كتاب «جريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الأصفهاني الكاتب وقد حققها العلامة الكبير الأستاذ محمد بهجت الأثري فأتم بذلك أربعة أجزاء ضخمة من هذا الكتاب النفيس . وقد نشر الجزءان الجديدان عن وزارة الاعلام العراقية .

كما صدر في جزءين كتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس» للامام أبي عمر يوسف القرطبي وقد حققه الأستاذ محمد مرسي الخولي وراجعه الدكتور عبد القادر القط وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* «صالح جودت في الميزان» كتاب جديد في النقد صدر للأستاذ عامر العقاد عن دار الندوة ، وهو يذكر القارىء بالكتاب النقدي الشهير الذي أصدره العقاد والمازني بعنوان «الديوان» لأن العقاد الصغير وضع الشاعر صالح جودت على مشرحته وتركه كثير الجروح والندوب بعد تسليط مقاييسه النقدية عليه .

* صدر للأستاذ فتحي الخولي كتاب عنوانه «قطوف لغوية» نشرته مكتبة الارشاد بجدة واشتمل على دراسات في اللغة وعلوم الكلام .

* أصدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم العدد الأول من مجلتها «الثقافة العربية» التي يحررها الأستاذ بدر الدين أبو غازي .

* من الكتب الجليلة التي صدرت أخيرا «منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية» للدكتور جلال موسى وهو من منشورات دار الكتاب اللبناني .

* طائفة غير قليلة من الكتب التي تتناول الدراسات الاسلامية صدرت مؤخرا ، منها : «الجامع المانع من حديث الرسول» وقد قدم له الدكتور حسن عز الدين الجمل وصدر عن دار الشعب ، و «الاسلام في مواجهة الماديين والملحدين» للأستاذ عبد الكريم الخطيب وصدر عن دار الشروق ، و «دعاء الفرج» للأستاذ عباس الديب ، و «الاسلام دين السعادة» للشيخ موسى محمد علي ، وقد صدر الكتابان عن دار الشعب . كما أصدر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية كتابين هما : «مشروعية الصوم في الاسلام» للأستاذ ابراهيم عبد الرازق ، و «رمضان شهر الجهاد» للأستاذ محمد رجاء حنفي عبد المتجلي . وصدرت عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر بمقدمة لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار الكتب التالية : «الاسلام والحضارة العالمية» للأستاذ محمود أبو الفيض المنوفي ، و «بشائر النبوة الخاتمة» للدكتور رؤوف شلبي ، و «منهج ابن عطية في التفسير» للدكتور عبد الوهاب فايد ، و «واقعية المنهج القرآني» للأستاذ توفيق محمد سبع .

هذا ويعكف القاضي الأستاذ أنور العمروسي على اعداد طبعة ثانية مزيدة من كتابه «أصول المرافعات الشرعية في مسائل الأحوال الشخصية» .

* صدر في دمشق كتاب كبير عن الأديب الشاعر الراحل الدكتور زكي المحاسني بأقلام أعلام الفكر والأدب الذين عرفوه وقدروا علمه وأسفوا للفراغ الكبير الذي خلفه الفقيد . هـذا وتعكف أرملته الأديبة السيدة وداد سكاكيني على تهيئة آثاره غير المنشورة للطبع ، ومن جملتها ديوان كبير ودراسات في اللغة والنقد ، والملحمة العربية التي تابع نشر حلقاتها في «قافلة الزيت» .

* يعكف الأديب الأستاذ جلال مظهر نجل العلامة الراحل اسماعيل مظهر على اعداد كتاب كبير عن أبيه يترجم له فيه ويحلل شخصيته ويعالج المعارك الأدبية والعلمية التي خاضها ، ويتناول آراءه واتجاهاته بالدرس والتقييم ، عارضا في ثنايا ذلك عصر اسماعيل مظهر ورجاله وتيارات الفكر التي عاصرها .

* من كتب السير والتراجم التي صدرت أخيرا «ذو النون المصري» للدكتور عبد الحليم محمود وقد نشرته دار الشعب ، و «الامام فخر الدين الرازي» للدكتور علي العماري وقد صدر عن المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية .

* تصدر قريبا طبعة ثانية مزيدة منقحة من كتاب «عمر فاخوري» للأديبة الكبيرة السيدة وداد سكاكيني .

* كتاب «أغرب التجارب الانسانية» صدر للأستاذ منير عامر عن مكتبة مدبولي .

* «أحلام بأحلام» عنوان كتاب للأستاذ نجيب مخول من منشورات مؤسسة بدران .

* من روايات الكاتبة البوليسية المعروفة أجاثا كريستي التي ترجمت أخيرا ونشرتها دار الكتاب الجديد «جريمة في مصر» ترجمة الأستاذ صادق راشد ، و «الجريمة المزدوجة» ترجمة الأستاذ محمود مسعود ، و «سر التوأمين» ترجمة الأستاذ محمد عبد المنعم جلال .

وهناك روايات أخرى صدرت منها «العاصفة» لغبريال وهبي وقد نشرت في سلسلة روايات الهلال ، و «طرف الخيط» للأستاذ رجاء نعمة وقد صدرت عن دار الآفاق الجديدة ، و «في مدينة المستنقع» للأديبة نهى صيداوي وقد صدرت عن دار الآفاق .

كما صدرت مجموعة أقاصيص منها «الخطوبة» للأستاذ بهاء طاهر نشر مجلة الجديد ، و «في الهواء الطلق» للسيدة سناء البيسي نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، و «آدم الصغير» للأستاذ فاروق منيب نشر الهيئة المصرية ، و «قلب ونار» وهي أقاصيص مؤلفة ومترجمة بقلم الأستاذ عبد الغني العطري وقد قدم لها رائد القصة الراحل محمود تيمور وصدرت عن دار العلم للملايين .

* كتاب «رحلتي الى الحجاز» لفقيد الأدب العربي ابراهيم عبد القادر المازني صدرت منه طبعة ثانية عن مجلة الجديد .

* الأديب الكبير توفيق الحكيم أخرج كتابا جديدا بعنوان «عصا الحكيم في الدنيا والآخرة» يضم فصولا له في شؤون الحياة والمجتمع . وقد نشر في سلسلة كتاب الهلال .

* أصدر الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي كتابا عن تاريخ ايران السياسي في القرن العشرين ، طبعته مطبعة المركز النموذجي بالجيزة .

* «سيكولوجية المرأة» كتاب لماري بونابرت ترجمة الدكتور صلاح مخيمر والأستاذ عبده ميخائيل ونشرته مكتبة الانجلو المصرية .

* ترجم الدكتور امام عبد الفتاح امـام كتاب «الجبر الذاتي» للعلامة الكبير الدكتور زكي نجيب محمود ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* أصدر الدكتور صلاح مخيمر طائفة من كتب علم النفس ، منها : « سيكولوجية الموضة » ، و « تناول جديد للمراهقة » ، و « في العلاج السنوكي والظاهر ياني » ، وقد ترجمه الدكتور مخيمر عن ديفيد مارتن . وأصدر الدكتور مخيمر بالاشتراك مع الأستاذ عبده ميخائيل كتاب « مدخل الى سيكولوجية التعليم » ، وكتاب « مدخل الى علم النفس الاجتماعي » و « سيكولوجية الشخصية : دراستها وفهمها » . وهذه الكتب جميعا من منشورات مكتبة الأنجلو المصرية .

* صدرت للروائي الكبير الأستاذ ابراهيم المصري مجموعتان جديدتان من الأقاصيص هما «الشاطىء والبحر» من مطبوعات مجلة الجديد ، و «أرواح ظامئة» في سلسلة روايات الهلال ■

حُطَامُ قيثارة

للشّاعر الأستاذ طاهر الزّمخشري

يا رياح الهوى .. على بابها المؤصد ، ألقى العثارُ بالخطوات
كان قيدي .. من الهوى يُرقِص الخطوَ ، وتسعى لغايتي عَزَماتي
وبخطوِي الوئيدِ ، ازحف في الدرب ، ولا انثني عن الغايات
احمل الداء ، لا أضيق به ذرعا ، وتلهو الآلام في خلَجاتي
والشّجا كان مِعْزَفي ، والتباريح مزامير وِحدتي وأساتي

° ° ° °

والأنين المكبوت في عُمْق نفسي بعضُ ما قد سكبتُ في اغنياتي
وعلى الصمت في كهوف الليالي عُلّقت نظرتي على أخيلات
وهي لم تَعْدُ صورةً لأمانٍ نَسَجَتْ من طيوفِها أملاتي
وهي وهمٌ وليس إلاّ هباءً ما تحوك الأوهامُ من رائعات

° ° ° °

يا رياح الهوى ، على بابها المؤصدِ ، ألقيت رُزمة الذّكريات
ونحرت الآمال ، فانتفض الصمتُ ، ليلقَى سكوتُه ضرباتي
علّه يُنقِذ البقايا من النفس ، ويُبقِي على وميض حياتي
أين معنى الحياة ، والعمرُ قد ضاع ، فأخرستُ عامداً نبضاتي
والأماني التي رمتني إلى التيه ، على بابها وَأدْت بناتي (١)

° ° ° °

يا بنات الأفكار ، من زحمة الأشجان ألقَيْتُ مِقودي للشّتات
فاتركيني أعشْ على ظلمة اليأس ، وما في دُجاه من مُعْطيات
فالتي كانت الحياة لروحي كيف صارت معابِراً للممات ؟ !
بالقنُوطِ المُلْتَاثِ ، بالفشل القاتل ، بالذعر ، بالأسى ، بالشّكات
كلها سَدّتِ الطريقَ إليها كيف لا يُطفيء الردى مشكاتي ؟ !

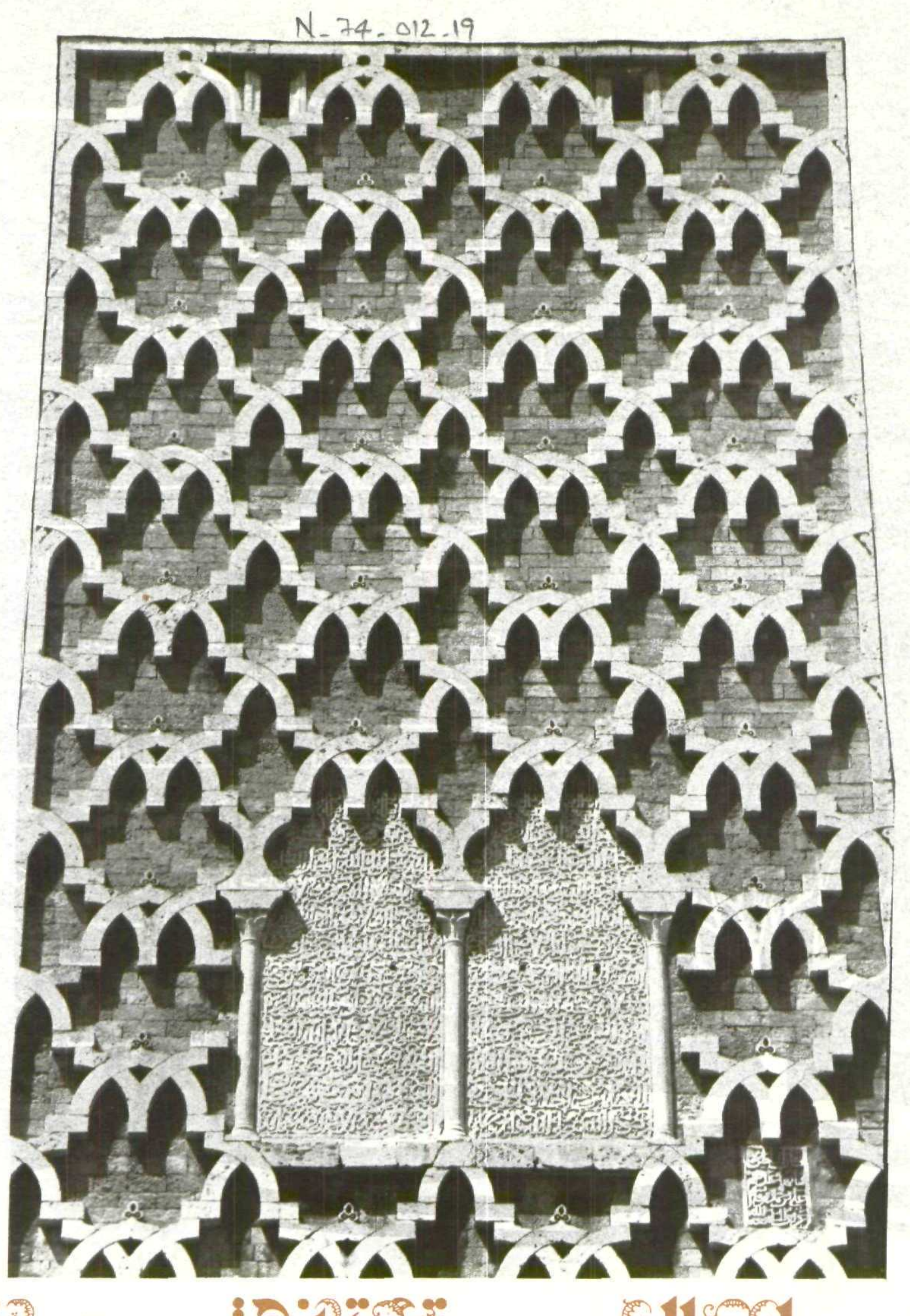
طاهر زمخشري — جدة



(١) أي بنات أفكاري .

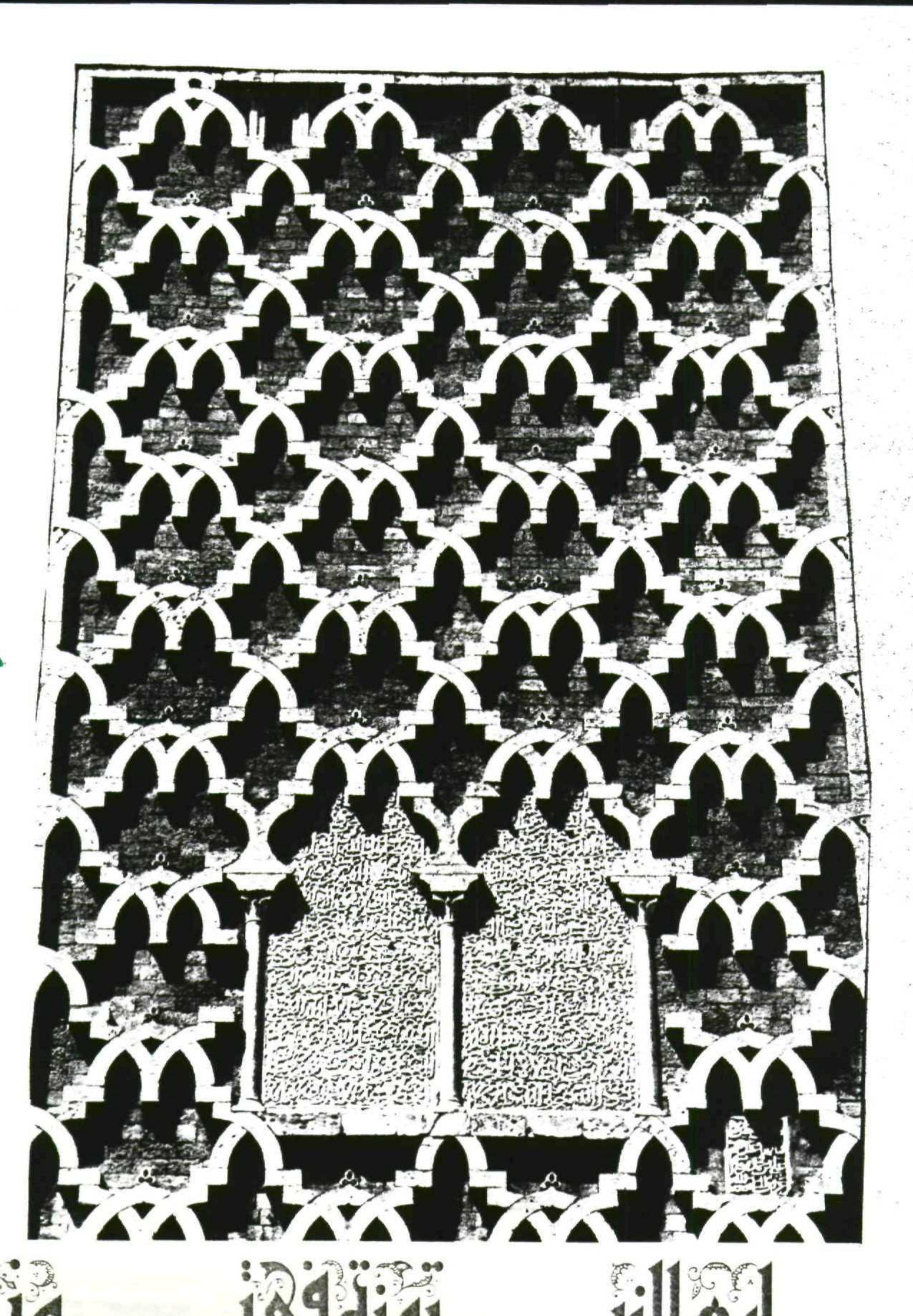






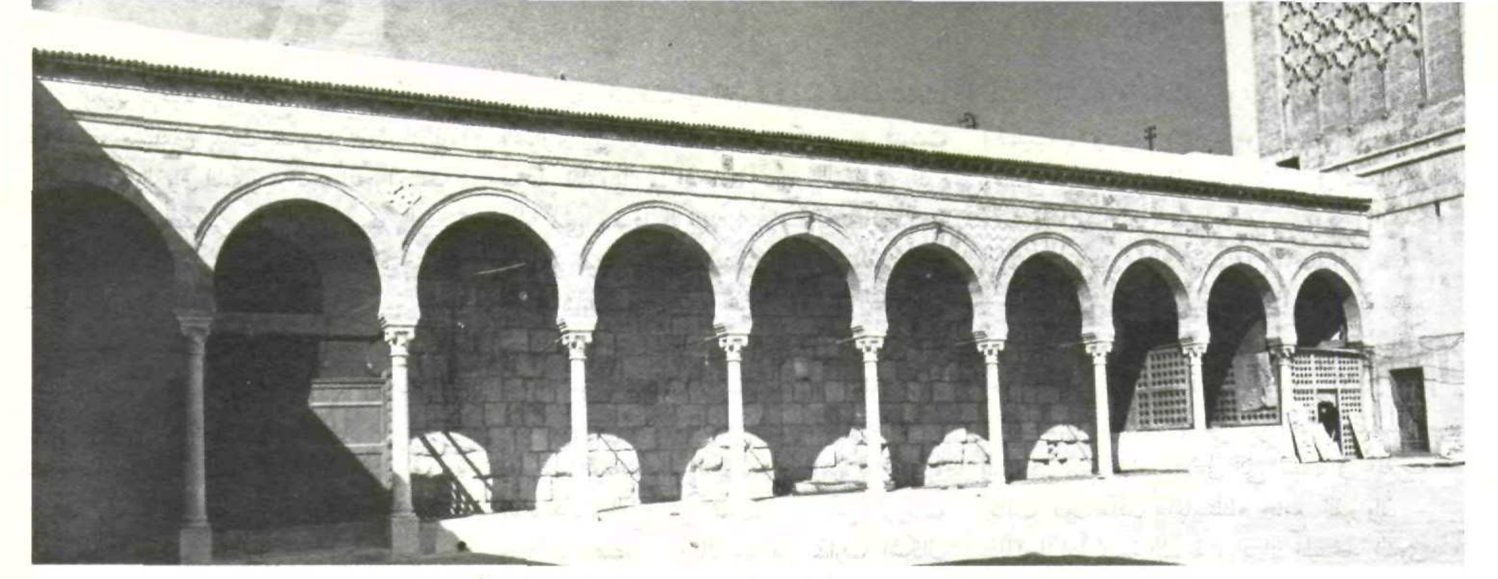
جامع الزيتونة في تونس

بقلم: الدكتور نقولا زيادة



جامع الزيتونة في تونس

بقلم: الدكتور نقولا زيادة



الرواق الغربي في جامع الزيتونة ، وقد ازدانت واجهته بالعقود القنطرية ذات الأعمدة الرخامية .

القسم القديم من تونس الحاضرة ، وهو المعروف هناك باسم « المدينة » ، يمكن اجتيازه من الشرق الى الغرب في نصف ساعة ، ويحتاج المرء الى الانتقال من شماله الى جنوبه الى ساعة واحدة . على أنني لا أعرف في دنيا العرب ، باستثناء القدس ، مدينة تضم في مثل هذه الرقعة الصغيرة من تاريخ العرب والاسلام عمارة وحضارة وثقافة وصناعة ما تضمه تونس . ان التاريخ العربي الاسلامي يتمثل فيها بشكل عامودي من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) الى القرن الماضي . فجوامعها ومساجدها ومدارسها وقبابها ودورها وسبلها وحوانيتها تضع أمام ناظريك صورة واضحة الخطوط بينة المعالم للنتاج الحضاري العربي الاسلامي .

ورغبة منا في أن يكون حديثنا عن الآثار الاسلامية في مدينة تونس مبنيا على أساس واضح ، فاننا نستميح القارىء الكريم العذر ان نحن سمحنا لأنفسنا أن نضع أمامه لمحة مختصرة للعصور التاريخية الاسلامية المختلفة التي عرفتها تونس . وهـذه يمكن اجمالها فيما يلي :

• عصر الولاة ٢٧ — ١٨٤هـ (٦٤٧ — ٨٠٠م) وهو العصر الممتد من بدء الفتح على يد عقبة بن نافع الى أوائل عهد الدولة العباسية . في هذا العصر تم بناء القيروان وتأسيس دار الصناعة في تونس وبناء جامع الزيتونة وتدوين الدواوين وجعل العربية اللغة الرسمية للدولة .

• عصر الأغالبة ١٨٤ — ٢٩٨هـ (٨٠٠ — ٩٠٩م) كانت دولة الأغالبة ، التي أنشأها ابراهيم بن الأغلب تتمتع باستقلال داخلي تحت راية الخلافة العباسية . وفي أيام زيادة الله تم فتح صقلية سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م) ، ومالطة سنة ٢٥٥هـ (٨٦٨م) . وكانت أيام الأغالبة أيام ازدهار وثراء بالنسبة الى تونس .

• الدولة الفاطمية في تونس ٢٩٨ — ٣٦٢هـ (٩٠٩ — ٩٧٣م) ، في هذه الفترة من عهد الفاطميين احتلت « كورسيكة » و « سردينية » . وقد خلف الفاطميين هناك ، بعد انتقالهم الى مصر ، الصنهاجيون .

• الـدولة الصنهـاجيـة ٣٦٢ — ٥٤٣هـ (٩٧٣ — ١١٤٨م) ، لما انتقل المعز الفاطمي الى مصر استخلف « ابن زيري » على تونس ، فاستبعد هذا بالأمر وأسس هذه الدولة التي كان من كبار رجالها باديس بن المنصور وابنه المعز . وقد كان زمن الصنهاجيين عصرا بلغت فيه تونس شأوا عظيما في التمدن الاسلامي ، ولم يكدر صفو الحياة في تونس في تلك الفترة سوى الزحفة الهلاليـة ٤٤٠ — ٤٤٣هـ (١٠٤٨ — ١٠٥١م) ، التي دمرت معالم كثيرة في تونس ، وخاصة القيروان .

• دولة الموحدين ٥٥٥ — ٦٢٦هـ (١١٥٩ — ١٢٢٨م) ، أدخل عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في المغرب تونس في نطاق ملكه الواسع . ومنذ ذلك الوقت أصبحت تونس حاضرة القطر . وفي سنة ٦٠٣هـ تولى عبد الواحد أبو حفص أمر تونس نيابة عن الموحدين ، فكان هذا بدء العهد الجديد .

• الدولة الحفصية ٦٢٦ — ٩٨١هـ (١٢٢٨ — ١٥٧٤م) . في تلك السنة قطع أبو زكريا الخطبة للموحدين وأعلنها لنفسه . وظلت تونس على ذلك الى أن دخلها الأتراك العثمانيون . وعصر بني حفص هو العصر الذهبي لتونس في الاقتصاد والأدب والعلم والبناء .

• العصر التركي المباشر ٩٨١ — ١١١٧هـ (١٥٧٤ — ١٧٠٥م) والفترة الأولى منه تعرف بعصر الدايـات ثم ، اعتبارا من سنة ١٠٤١هـ (١٦٣٢م) ، عرف العصر بزمن البايات . وهذا استمر الى سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) لما قامت الأسرة الحسينية التي استمرت الى سنة ١٩٥٧م .

* * *

ولننتقل الآن الى زيارة للمدينة التونسية ، ولندخل من باب البحر ، الواقع في شرق المدينة . وحري بالذكر أن أسوار تونس قد هدمت بعد الاستقلال ، ولم يبق قائما منها سوى الأبواب . وباب البحر هذا يعود في أصله الى أيام الأغالبة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، وقد ادخلت عليه تحسينات كثيرة واصلاحات متعددة جعلته على شكله الحالي . وبعد الباب هذا نجوز ساحة صغيرة ثم ندخل نهج (شارع) جامع الزيتونة . وبهذه المناسبة فشوارع المدينة جمعاء ضيقة ، ولا تدخل فيها السيارات قط . وهذا شارع يكتظ بالحوانيت التي تعرض فيها منتوجات الصناعة اليدوية التونسية ، شأن جميع شوارع تونس القديمة . وهذه الأسواق أكثرها تتوسط المدينة وتدور بجامع الزيتونة أو تكون قريبة منه . وينتهي بنا السير الى شارع جامع الزيتونة الذي يوازي الجدار الشرقي للجامع الزيتوني الكبير ، ثم الى سوق العطارين الواقع شمال الجامع ، وهو « حفصي » الانشاء ويعود تاريخه الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

ويكون دخولنا الى جامع الزيتونة من الباب الشرقي ، متسلقين لذلك بضع درجات ، فاذا اجتزنا الباب والرواق الذي يليه اتجهنا نحو الصحن.

وقفنا في الصحن مواجهين بيت الصلاة أو المسجد ، والجدار القبلي يقع في اتجاه جنوبي شرقي . وهذا القسم يتكون من خمسة عشر رواقا يفصل بينها أربعة عشر عقدا . وطول بيت الصلاة أربعة وخمسون مترا ، وعرضه ستة وعشرون مترا . والعقود فيه متعامدة على جدار القبلة ، إلاأنها لا تتصل به ، اذ تظل فسحة عرضها أربعة أمتار قائمة بينها وبين الجدار .

واذا توسطت الصحن ، وكان موقفك مقابلاً للمحراب وللرواق الاوسط في بيت الصلاة ، لاحظت ثلاثة اشياء : اولاً ان هذا الرواق اعلى واوسع من الاروقة الباقية عن يمينه وعن شماله . وثانياً ان المحراب تقوم قبله قبة لطيفة . وثالثاً ان قبة اخرى تكون مقابلة لك ، وهي قبة البهو .

والعقود القائم عليها المسجد ترتكز على اعمدة ، وهي في غالبيتها اعمدة من رخام ابيض . اما صفا الاعمدة الموجودان في الرواق الاوسط فهما من الرخام الاحمر . وثمة مجموعتان من الأعمدة ترتكز على احداهما القبة القائمة امام المحراب ، وترتكز العقود الامامية من الرواق الاوسط على الاخرى ، وهذه الأعمدة رخامية لكنها مختلفة الألوان .

ولعله من الخير ان ننقل هنا بعض ما قاله «احمد فكري» عن هذه الأعمدة وزخارفها :

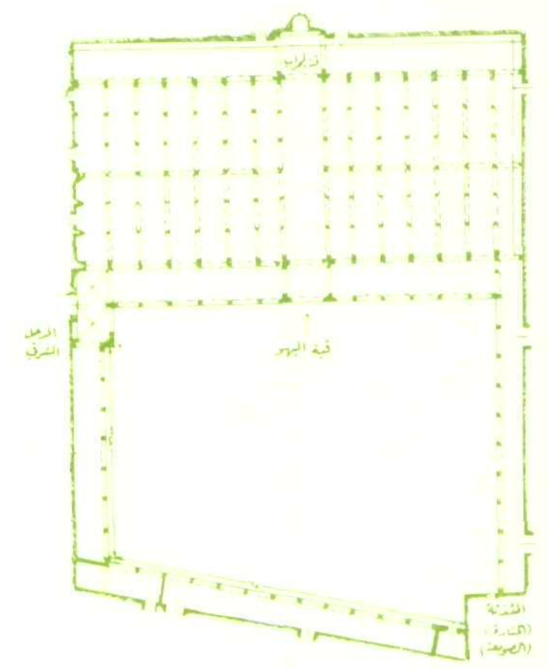
« لقد اتيحت لي اخيراً فرصة دراسة تيجان السواري (الأعمدة) عن كثب ، فتبينت سرعة تطورها ، اذ ان جميع السواري التي تعلو قبتي مسجد الزيتونة اسلامية نحتاً وشكلا ، ويظهر فيها مدى الابتكار الذي تولدت عنه جميع هذه التيجان تعبر عن زهرة « الأكانتا » . ولكن النحات التونسي وضع وريقات هذه الزهرة على تيجانه بحيث تقف عند النقط الأساسية من جسد التاج في وسطه واطرافه ، ومع هذا فقد تنوعت اشكال هذه الزهرة الواحدة ، فتارة يكون التاج من صف واحد من الورقات وتارة من صفين . وبالرغم من تقارب اشكال الورقات واقتصارها على ثلاث ، فان التنوع ظاهر في امتدادها او التفافها وفي انتعاشها وشموخها . . هــذا الشكل من التيجان الذي نشأ في القيروان ونما في الزيتونة تطور تطوراً شمل بلاد المغرب والأندلس . »

والقبتان فيهما من الزخرف الكثير . والمحراب قوسه على شكل حذاء الفرس الدائري ، وهو شكل الأقواس جمعاء في جامع الزيتونه . والزخرف الجبسي ظاهر في كل من القبتين ، كما ان الكتابة الكوفية واضحة . والمنبر خشبي يحتفظ به في غرفة خاصة ، وينقل على عجلات للاستعمال . والمنبر « اغلبي » الصنع كما يتضح من النظر الى نقش اخشابه بدقه .

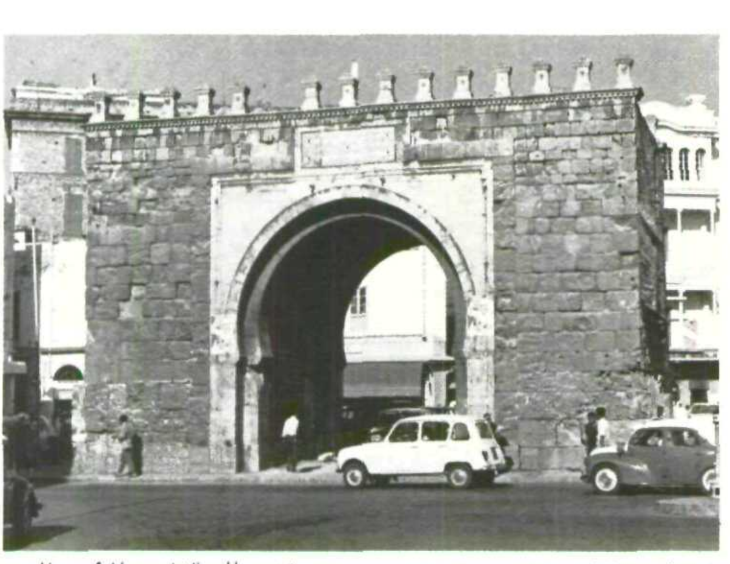
وللجامع ثلاثة عشر باباً ، اثنان منها في الجدار القبلي ، فالواقع منهما الى يمين المحراب يقود الى غرفة المنبر ، والآخر هو باب الخطيب . وبقية الابواب موزعة على الجدران كما يلي : ثلاثة في الغرب ، وثلاثة في الشمال ، وخمسه في الشرق ، احدها مسدود . وهذه الابواب تؤدي الى الاسواق المختلفة .

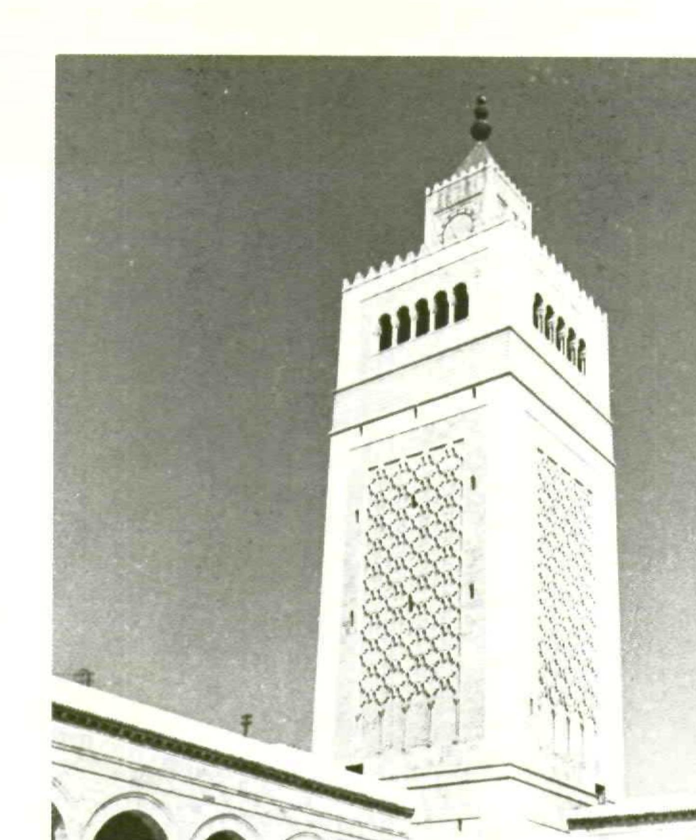
وفي الزاوية الجنوبية من جامع الزيتونة ترتفع مئذنته (صومعته) المربعة الجميلة . وحري بالذكر ان هذه المئذنة لم تضف الا في سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤ م) على طراز مئذنة القصبة . ولنتذكر ان الجوامع الاولى التي بنيت في المغرب كانت دون مآذن – باستثناء جامع القيروان – وذلك اتباعاً للسنة النبوية ، اذ ان المسجد النبوي في المدينة لم يكن له مئذنة .

و« جامع الزيتونة » بصحنه ومصلاه واروقته وعقوده واقواسه ومحرابه ومنبره وقبته وابوابه واعمدته ، يمثل عمل ستة قرون على الأقل . . فقد بناه اول من بناه ، حسان بن النعمان اثر فتحه تونس سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) . وكان البناء بسيطاً ، القصد منه ان تيسر للناس اقامة الصلاة فيه . ولكن عبدالله بن الحبحاب ، القائد الأموي ، اعاد بناءه سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) . ولما جاء الأغالبة الى الحكم في ولاية افريقية (تونس) وانصرفوا الى البناء والعمران والفن ، كان للزيتونة من جهدهم نصيب . وقد بدىء بهذا البناء زمن ابي ابراهيم احمد ، وتم العمل في عهد اخيه زياد الله ، وكان ذلك سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) والخليفة العباسي المستعين . والنقش الكوفي الذي يشير إلى ذلك ، هذا نصه :



خارطة تمثل موقع جامع الزيتونة في تونس وأقسامه الرئيسية .

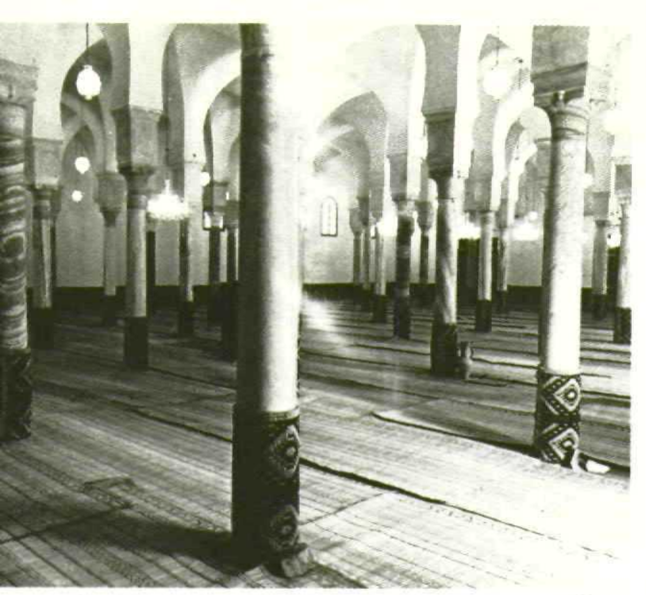

باب البحر الواقع شرقي مدينة تونس ، وهو يفضي الى الشارع المؤدي الى جامع الزيتونة .



مئذنة جامع الزيتونة ، المربعة الشكل ، وقد شيدت على غرار مئذنة جامع القصبة ، ويرجع تاريخ بنائها الى عام ١٣١٢هـ . .



نموذج للحرف اليدوية المألوفة في مدينة تونس والواقعة حول جامع الزيتونة الأثري .



احد أروقة جامع القصبة الأثري في مدينة تونس ، وقد ازدان بالأعمدة الرخ
ذات الطابع الاسلامي الجميل .



جانب من سوق تجارية تتوسط مدينة تونس وتحيط بجامع الزيتونة .

« بسم الله الرحمن الرحيم مما امر بعمله الامام المستعين بالله امير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله ومرضاته على يدي نصير مولاه سنة خمسين ومئتين – يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله – صنعه فتح البنا . »

وكان ان عُمِّر الجامع وزخرف على يد ابي زكريا الحفصي . وقد انتهى العمل من ذلك في شعبان سنة ٦٧٦ ﻫ (يناير ١٢٧٨ م) .

ولعلّ من احسن ما في جامع الزيتونة بالنسبة الى دارسي تاريخه هو كثرة النقوش على الحجارة التي تشير الى بناء او تجديد او توسيع او زخرفة . وقد ذكر منها احمد فكري خمسة عشر نقشاً كان آخرها ذلك الذي اشرنا اليه بالنسبة الى بناء المئذنة .

وثمة امر اخر حري بالتذكر وهو ان جامع الزيتونة يعاصر جامع القيروان – في القرون الأولى – خطوة خطوة ، وخاصة في العهد الاغلبي ، الا ان جامع القيروان اوسع .

وثالث ما يستحق الذكر هو ان جامع الزيتونة بني اصلاً بيت صلاة وصحنا دون اروقة جانبية (اومجنبات كما تسمى في تونس) . والواقع ان الجوامع الثلاثة الكبيرة الأولى في المغرب الاسلامي بنيت على هذا النحو: جامع قرطبة ١٧٠ ﻫ (٧٨٦ – ٧٨٧ م) والقيروان ٢٢١ﻫ (٨٣٦ م) والزيتونة ٢٥٠ ﻫ (٨٦٤ م).

• • •

مدينة تونس غنية بالآثار الاسلامية على ما ذكرنا . ولسنا نطمع في هذه المقالة ، ان نتناول جميع هذه الاثار . لذلك فاننا سنكتفي بالاشارة الى بعض منها . وفي مقدمتها جامع « القصبة » . والقصبة هي القلعة الرئيسية ، ودار الحكم ، ومسكن الامير . وجامعها كان موضع عناية الذين بنوه . والقصبة التونسية « حفصية » المنشأ بشكل خاص . وجامعها بناه ابو زكريا سنة ٦٣٣ ﻫ (١٢٣٦ م) ، وكان من قبل يسمى جامع « الموحدين » . والاعمدة التي استعملت حملت اليه من ابنية قديمة . ومئذنة جامع القصبة هي اولى المآذن ذات الهندسة الموحدية في تونس ، وقد اصبحت فيما بعد مثالاً يتّبع . ومئذنة جامع الزيتونة القائمة الآن بنيت على نمط مئذنة جامع القصبة .

والاعمدة التي ترتكز عليها عقود المسجد هي الاعمدة الرخامية الجميلة التي جيء بها من الابنية القديمة .

ومن المساجد الجميلة جامع « يوسف داى » الذي بني في مطلع القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ومن اجمل ما فيه مئذنته المزركشة .

ومنها جامع « حموده باشا المرادي » من القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ايضاً . ومحرابه والاعمدة المحيطة به والزخرف القائم فوق المحراب من اجمل ما يمكن ان يرى .

وفي المدينة عدد من الدور الكبيرة الأنيقة، وفي مقدمتها دار « الباي » وهي من بناء المراديين، في الربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) وقد بنيت على غرار القصور الاندلسية ، وهي الآن قصر الحكومة .

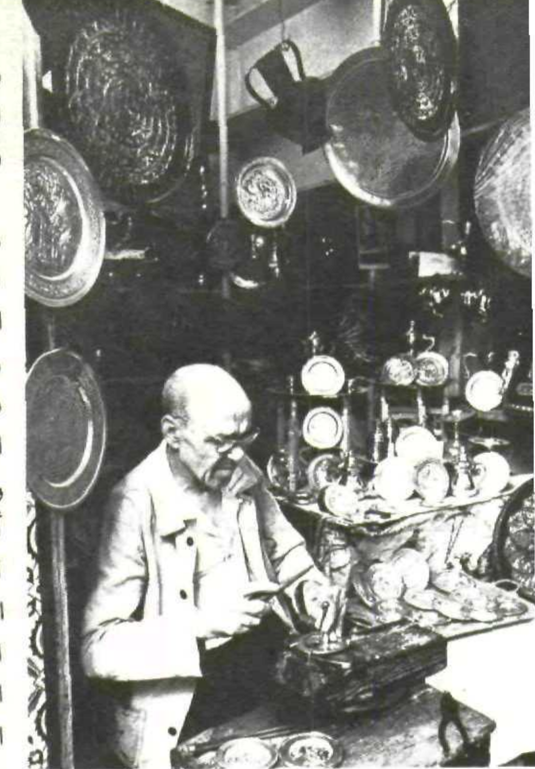
الجزء العلوي من مئذنة جامع يوسف داي ، وقد تحلت بسمات العمارة الاسلامية البديعة ذات الزخارف الجميلة .

لئن كان جامع الزيتونة يضم بين جدرانه تاريخ ستة قرون من فن المعمار والزخرف ، فان هذا الصرح يمثل تاريخاً اطول من ذلك بكثير للحياة العلمية في مدينة تونس . فقد اخرج حسن حسني عبد الوهاب ان تداول التعليم بالزيتونة يرجع الى اوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، وان اول من سمع منه هناك كان زيد بن بشر الأزدى . على اننا لا نستطيع ان نتصور تونس ، وجامع الزيتونة فيها ، دون قراء ومحدثين وعلماء حتى قبل ذلك . صحيح ان القيروان نالها من شرف خدمة العلم الشيء الكثير في القرون الاسلامية الأربعة الاولى، لكن لا بد انه كان في الزيتونة من يقرىء الناس ويفسر لهم ويحدثهم ويروي لهم الادب والتاريخ ويشرح لهم شؤون اللغة واساليب البلاغة .

ويجب ان نذكر ان الاغالبة انشأوا معهداً للترجمة والبحث سموه « بيت الحكمة » على نحو ما كان للعباسيين في بغداد . ولعل معنى هذا ان الجوامع كانت تقتصر على العلوم الدينية ،



حانوت خاص ببيع انواع العطور المختلفة ويقع ضمن الأسواق التي تتوسط مدينة تونس والمحيطة بجامع الزيتونة



صناعة الأطباق النحاسية ذات النقوش الجميلة من الصناعات ليدوية المنتشرة وسط مدينة تونس حول جامع الزيتونه .

بينما كانت الحكمة ، والطب ، والفلك ، والجغرافية ، والرياضيات ، من الامور التي يُعنى بها « بيت الحكمة » وما اليه . الا ان الامر اختلف مع توالي الزمن ، وخاصة في عهد الحفصيين ، اي بدءاً من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، ففي هذا الوقت رحل عدد كبير من اهل العلم في الاندلس الى تونس ، واستقر التعليم العالي في جامع الزيتونة بتونس . ولعل اهم من ذلك كله ان مواد التعليم ضمت الى بعضها البعض ، واصبح جامع الزيتونة مقرها ومستقرها . فكان يدرس فيه الدين ، والطب ، والهندسة ، والحساب ، وما الى ذلك . ولعله ليس من قبيل المصادفة ان ينتج العصر الحفصي عدداً كبيراً من الموسوعات ، فالى هذه الفترة يعود تاريخ ابن خلدون ومقدمته ، ولسان العرب لابن منظور ، وسرور النفس للتيفاشي ، وهو موسوعة كاملة في ممالك الطبيعة الثلاث : الجماد ، والنبات ، والحيوان . ولم يكن حظ الادب بأقل من ذلك فقد ألّف حازم القرطاجني كتاباً سماه المناهج الادبية يمكن اعتباره جماع ما يمكن ان يتحدث عنه في اساليب الادب ونقده . يُضاف الى ذلك كله نشوء المدرسة الطبية التونسية في تونس باشراف اطباء من « آل الصقلي » .

وحري بالذكر ان الاهتمام بالموسوعات في هذه الفترة لم يقتصر على تونس ، فقد عرف المشرق ايضاً موسوعات كبيرة مثل : صبح الاعشى للقلقشندي ، ونهاية الارب للنويري ، ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري ، فضلاً عن كتب التاريخ الكبرى : كالنجوم الزاهرة ، والسلوك ، ومؤلفات السيوطي الكثيرة . ونحن لو اتجهنا الى ايران واواسط آسيه لوجدنا أيضاً موسوعات كثيرة . . ومثل ذلك يقال عن المغرب . ذلك بأن الفترة الممتدة من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) الى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) تمثل ، بالنسبة الى الحضارة العربية الاسلامية ، زمن الجمع والتصنيف والتدوين والتحليل لنتاج الفكر العربي الاسلامي .

وفي اواخر العهد الحفصي كان القطر التونسي يعاني مشاكل سياسية واقتصادية كثيرة ويتعرض لهجمات اوروبية . وقد جاء احتلال الاتراك لتونس سنة ٩٨١ﻫ (١٥٧٤ م) فوضع حداً للمطامع الاوروبية . وفي سنة ١١١٧ ﻫ (١٧٠٥ م) قامت الاسرة الحسينية في تونس. ونحن اذا اخذنا زمن الولاة العثمانيين والحكام المراديين وجدنا ان ثلاثة امور هامة اثرت في الحياة العلمية في تونس بشكل خاص . ولعل جامع الزيتونة كان له في ذلك نصيب كبير . وأول هذه الأمور هو ازدياد الهجرة الاندلسية الى تونس، والثاني رحلة عدد كبير من الطلاب التونسيين الى المشرق ، والامر الثالث انتاج طبي وفقهي كثير . ولعله من المناسب ان نذكر هنا انه على اثر الاحتلال التركي حاول الاتراك ادخال التركية كلغة تعليم بالزيتونة ، وترجيح كفة المذهب الحنفي على المذهب المالكي ، ولكن المحاولة لم تنجح وانتهى الامر بجامع الزيتونة ان يعود سيرته الأولى ، فيظل المركز الاول للتعليم . ويلفت نظرنا « عثمان الكعاك » الى الفروق في الدور العلمي الذي قام به جامع الزيتونة بين ايام الحفصيين وبين العصر الحسيني الأول الذي يمتد من سنة ١١١٧ — ١٢٣٠ ﻫ (١٧٠٥ — ١٨١٥ م) ، ويجمل هذه الفروق فيما يلي :

اولا : كان التعليم الزيتوني الحفصي يشمل التعليم الاسلامي الادبي والديني والفلسفة والعلوم العقلية عامة ، والطب والفلك والحساب خصوصاً اما في العصر الحسيني فقد نقصت هذه العلوم العقلية ، ولم يبق منها الا الميقات وشيء من الطب .

ثانياً ، يبدو ان التعليم الحفصي كان يقوم على الكتب التونسية اصلاً . فكما كان الفقه في عهد الأغالبة يعتمد على مدونة «سحنون» ، وفي عهد الفاطميين كان يرتكز على كتاب دعائم الاسلام ، فقد اعتمد العهد الحفصي على الرسالة لابن ابي زيد والشروح التي وضعها لها علماء من تونس . اما في العصر الحسيني فقد كان الكثيرون من الاساتذة بالزيتونة قد درسوا في مصر ، فكان من الطبيعي ان يزودوا انفسهم بكتب الفقه المصرية . ومثل هذا يقال في المواد الادبية .

ثالثاً ، ان التعليم الزيتوني على العهد الحسيني الذي انقص منه التعليم الرياضي قويت فيه النواحي الاخرى من دينية وادبية وفرضية وميقاتية وزاد التعمق فيها .

اذا كان جامع الزيتونة هو الذي أخرج للقطر التونسي عدداً كبيراً من المتعلمين فلا شك ان دور الزيتوني في المجتمع التونسي كان كبيراً . وقد حدد عثمان الكعاك هذا الدور بقوله :

« الزيتوني هو قبل كل شيء « عدل » القرية ، والعدل هو مبرم العقود اي العارف بأنواع الالتزامات من بيع وكراء ، وقروض وانكحة . فهو أعرف الناس بالمجتمع وألصق الناس به . واطلاعه على الأسرار واضطلاعه بحل المشاكل يجعلان له مقاماً مرموقاً فيه هيبة ورغبة ورهبة . ثم هو امام القرية والمدرس بالجامع وكاتب الرسائل الخاصة والمرشد والواعظ والمفتي في القضايا، ثم هو أديب القرية وشاعرها وعالمها . فالطبقة المثقفة السميكة التي تغمر البلاد هي طبقة العدول والحضارة حضارة عدول . وهذه الطبقة السميكة وسط بين طبقة علماء الزيتونة من اعلى ، وطبقة الطلبة من اسفل . هذا هو جهاز البلاد الثقافي المتولد من الكتّاب والزاوية والمدرسة والجامع ، قاعدة هرمه الكتّاب وقمة الهرم هي جامع الزيتونة المعمور . »

واخيراً، لنذكر ان جامع الزيتونة نقلت اليه مكتبة"ابن زكريا الحفصي" ، وكان بها اربعون ألف مخطوط ، ثم زيد في ذلك من مكتبات اخرى خاصة ، وعامة في ايام بني حفص ، ثم في القرن الماضي على ايدي احمد باي ، والصادق باي، والوزير المصلح خير الدين ■

نقولا زيادة — بيروت



عبء البيان

للشاعر الأستاذ الياس قنصل

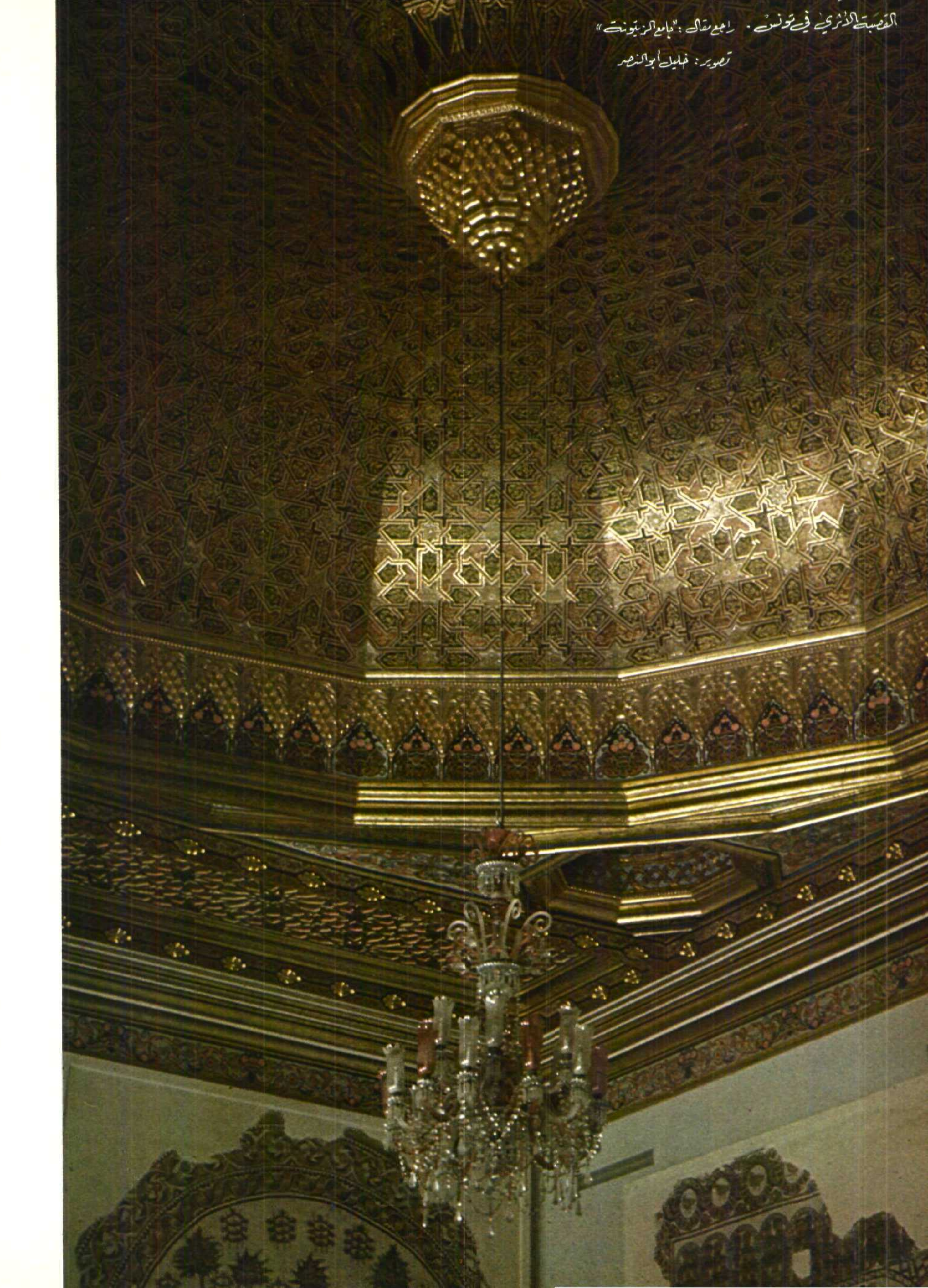
لا تمدحوني ان نظمتُ قصيدةً ... مهما استوى الابداعُ في أبياتها
ان المديح يغلّ نفسي موهياً ... فيها الطموحَ ، محدداً رمياتها
ويشدّها نحو الثرى وهي التي ... رادتْ رحاب الأفق في وثباتها
بل طالعوا ما بين اسطرها ، فقد ... فاضت معانيها على كلماتها
في كل بيت قطعة من مهجة ... جرحتْ تباريحُ الأسى خلجاتها
لا تخنقوا حريتي بقلائد ... يطفو بريق الآل من حباتها
انا ليس لي فضل اذا خلعتْ على ... شعري عرائسُ عبقرٍ نفحاتِها
من قسمتي عبء البيان وكشفُ ما ... تخفي الطريقُ لتأمنوا عثراتها
روحي الى ماس الحياة مشوقة ... وعيونكم مشدوهة بحصاتها
بدّلت رفد سعادتي بعواطف ... غيري الذي يجني سخيّ هباتها
فتمتعوا عني بكل ملذة ... سمحتْ بها الأقدارُ قبل فواتها
ودعوا فؤادي تائهاً في حيرة ... تخشى قلوب الجنِ صحراواتها
كم ليلة راض الوجومُ سكونها ... وانساب همس الوهم في جنباتها
سامرتها ويراعتي لا ترتضي ... حبراً سوى دمعي لبثّ شكاتها
لا تمدحوني واتركوا لي نهزة ... اسمو عن التقليد في برهاتها
فاصوغ آلاء القريض خواطراً ... عذراء يزهو الحسن في فقراتها
أنا لا أزال مقيّداً بسلاسلٍ ... الناسُ والأيامُ من حلقاتها
مهما نظمتُ فلستُ أروي غلة ... في النفس للتعبير عن رغباتها
صُوَري خطوطٌ ما تنسّق لونُها ... يبدو اضطرابُ الضعفِ من هفواتها
لم تلتقط اذ نايَ حتى الآن من ... شدو الحياة سوى صدى نغماتها

الياس قنصل – الارجنتين



ـي من المدعوين إلى المؤتمر العلمي الذي عقدته كلية البترول والمعادن
ران . أثناء جولة تفقدية للمعامل الحديثة في الكلية .

ماك : « دور الجامعة السعودية في التنمية الصناعية والاقتصادية »



القصبة الأثري في تونس. راجع مقال: "جامع الزيتونة"

تصوير: خليل أبو النصر